عاشور الطويبي

شذرات

مختارات شعرية

أركنو
للطباعة والنشر

عاشور الطويبي

شذرات

مختارات شعرية

2013-1993

دار أركنو للطباعة والنشر

الزاوية- ليبيا

الطبعة الأولى 2013
رقم الإيداع 2012-521
ISBN 978-9959-1-1080-0

دار أركنو للطباعة والنشر
الزاوية، ليبيا
تليفون

00218925011672
لوحة الغلاف للفنان التشكيلي
حسكو حسكو

قالت الشجرة أنا قدم البحر
قالت الهضبة أنا ابنة البحر
قال التراب المنتشر في البحر
أنا قدم الحصان.

كأني
رأيتُ
شفة هذا الكأس!

في هذا العمر
لا زلت أغربل نغمات الكون بسمع ثقيل.

كنتُ طفلاً

لا أعرف الجمع والطرح،

لا أعرف أسماء الأشياء.

كنتُ طفلاً

ألعبُ بمخيلة مثقوبة الجانبين،

لم أحسب الوقت،

لم أرَ الجسرَ بين ضفتي المعنى.

أنا أثرٌ يمشي على ساحل.

لم أقبض على البدء

فكيف أمدّ خطوتي الواسعة

إلى منتهى ليس لي؟

استهلال

السماءُ مكتنزةٌ بالنجوم
بعضُها ساطعٌ، بعضُها باهتٌ،
وبعضُها كما يجب أن يكون.

أقفُ متّكِأً على حافّة الشرفةِ،
أرقبُ المشهدَ العظيم،
أحاولُ أن أفهم!

لكن هذا لا يتأتّى في اتّكاءة واحدة.

انفعالات

الصورةُ تتكوّنُ على مهلْ:
مدائنُ ترفرف أعلامها على منحنى الأفق،
وتحكي أسرارها باللّغة البسيطة.

صحارى عند مصبّ الظّلال تشدُّ إليها ما لا يرى
وتتجمع في شهقة حارّة.

بحار إيماءات خفية وكلام متشابه،
لكن عند اقتراب الشفاه من ليلنا
غناءٌ بطيءٌ عميقٌ.

متشابهات

تبدو الأشياء من حولي مألوفة:

مثلما في الصلوات اليومية تتبدّدُ الأوهام والظنون.

مثلما يتم رشف الشاي الساخن

في الصباح.

مثلما يظهر القمر على الماء.

مثلما تستلقي الشمس على فراشها الأحمر وتغلق الباب.

مثلما يخرج البحر خلسة ويسأل النوارس عن الوقت.

مثلما نجيء ونمضي، نجيء ونمضي......

صيد

الصيّادون مرّوا من هنا

مرّوا بدون سمك!

طيور وسماء

تعبر إلى فضاءات الوداعة والخنوع،
مع الرافضين والحالمين والخائفين.
تعلم أنّ المدينة هُتكت وسالتْ دماؤها
وأنّ كلّ شيء مباحٌ وفوضوي.
تقف تحت شمسها، تخطّ على حيطانها
ما خبأته الذاكرة من الدم والحكمة.

طيور بيضاء في فضاء اسود،
طيور سوداء في فضاء أبيض.

نسافرُ مع الصحْوة الأولى، نتخفّفُ من حصار
الأمزجة المعتمة، نتوسّدُ شجرة القوم الخائفة،
ونقرّب أجسادنا لتتلاقى حوافّ النشوة.

السفينة تصفع وجهَ الماء.

الذين قدموا توّاً من الشاطيء:

يمشون على الماء، الرماح في أيديهم.

وأنا سفينتي واقفة وأحلامي خاوية.

يا نجمات البحر، مهلا، مهلاً، مهلاً.

الفراشات ما عادت تضحك،

صار لها أجنحةٌ من طين، ومقعدٌ في بلاط الخوف.

تعلمُ أنّ البحر كبير وأنّ الوقت رملٌ

ينساب بين الأصابع.

تعلمُ أنّ من عبق الليمون سقطت قطرة،

فانتشت الأرض بالنضارة.

تعلمُ أنّ الغابات تحمل المواعيد

لحجر صار وردةً .

أعضاء الساعة تتدلّى من حفرة في الحائط، الوقت

يعدّ الفواصل والنقاط للصباح الجديد.

طَرقٌ على الباب!

ومن وراء الباب، كان الصباح واقفاً.

مَن يريد الصباح في ساعة مبكّرة؟!

أنا من يفتّش عن الحجر في الماء.

أنا من يفتّش عن الماء في الحجر.

ألمح غزالات تبكي، فرحاً يتنحر

في ساحة المدينة.

أذكر كيف استدارت تفّاحتي عارية،

وكيف خوفها تراجع خطوتين

وطلب المغفرة.

حروف على الجدار تستغيث بالجدار

أن يصير رماداً ولا يفضح الأبنية.

تقول المباني وهي تغلق أبوابها:

عندما يستقيم المعنى، يختفي العسس.

الوجوه التي سقطت من سحابة العمر، منكسرة، مخطوفة الظلال، تبكي. السفائن سافرت، على ظهرها التجاعيد والشتاءات القديمة.

قبل أن أفهم لغتها، كنتُ ساذجاً، لا أعلم إلاّ ما جاء في كتاب الجغرافيا والتقرير السياسي. لم أدر أن التراب حيّ، أنّ المطر هو السيّد، أنّ الشمس لا تجلس إلاّ هناك، أنّ المدن المكابرة تتزين هناك، أن القلوب تصبّ هناك.

كنت ساذجاً، ضيق الأفق ومارق.

يمرّ من يمرّ بهذي الديار،
ويبقى التراب هو التراب.

تفرّين مثل غيمة شاردة، لكن حين تجيئين،
على الكتف العاري تضيع الهموم.

سياسة

لأن الزنجية غنّت وبكت، يتراجع الظلام وهو
يرتعد. صوتها يحرق، صميمَ الفؤاد.
من نقطة في الظلمة يجيء النهار.

الناس طبقات:
العليا بلا معالم،
الوسطى بلا معالم،
السفلى بلا معالم.
مع ذلك مختلفة!
شيءٌ جميل أن أتنفّس بهذا العمق
شيءٌ جميل أن أقول ما أريد،
شيءٌ جميل أن تحسّ بي من بعيد،
شيءٌ جميل أن أحبّ بلا انقطاع.

أمامي ينتصب حريق المدينة التي خالفتني

أضمُّ الحياة إليّ وبفتور كبير أعيدُ ترتيب أحلامي.
هنا أشياؤنا تناثرت، وضحكاتنا انهزمت،
هنا ادهشنا تلوّن الفصول وخاننا خنوعها.

إنتبه:
خطّان من الدم على التراب
وجثّة مزمنة في معطف الرجال الأقزام.

اعتراف

يا بحر، أيّها المبجّل، أوقفتني أمام بابك زمناً،
أدخلتني براري شهوتك، حمّلتني سرّ الموج.

في صحراء محرقة، ركبتُ سفينتيً،
انقسمت في الحبيبات ضوءاً، تقوّس الألم
وانخرطتُ في بكاء طويل مهيب.

كنتُ كالطلح صبوراً وثابتاً.

على الكثبان المسكونة بالفزع، وضعتُ البحر
وغمستُ فيه قلبي كي لا يحترق.

أسير على حوافها، عيناي فوق كفّي منارتان،
أطلب الشوق في أرضه،
أطلب ريحه التي غلبتني
وانحسرت مستنجدة بالمعاصي.

لحظات من حياة رجل هرم

الأشياء مبعثرة والكلمات همٌّ يكبر.

الهدوء والرتابة هما
أدواتي لفكّ رموز
الحضارة.
دائما كلّما مشيتُ تمنيّتُ أن
أسير في الاتجاهين.

منذ عشرين سنة كنتُ حادّاً مع الكلمات.
الآن أصبحتُ أئن تحت وطأتها،
هي نفس الكلمات.
عند قدوم الشتاء: أقف منتصب القامة،
أرفع ياقتي وأفتح النافذة.
وكلّ مرّة أنسى أن أعطيك الوردة.

في المساء أجلس على طاولتي،

أشرب الشاي وانتظر الجبل المكابر.

أحياناً تأتي نسمة طيّبة، تشاركني الانتظار.

مرّات كثيرة:

تغمرني الوحشة، يضيع مني الصوت،

اصبو للسكون.

أشياء بسيطة وعابرة هي اللحظات

البهيجة. أتذكّر كيف أن ابنتي فاجأتني

يوماً وقبّلت ما كتبتُ، وكيف رسمتني دون

شارب ومن لطفها لم تنس أن ترسم طاقيتي

الحمراء ونتوءها البارز.

أشياءٌ بسيطة وعابرة، لكنها تملأ يومنا بالحياة.

دع الأشياء تحدث

دع يديك تتحسّسان الكون،
دع الخشب يهمهم أغنيته،
دع النار تغمز كصديق قديم،
دع الموسيقا تسيل على الرصيف،
دع قلبك يرمي بطولاته المزيفة
في زجاجة النبيذ.

دع المكان يهيج بارتباكه.

الخريف أتى مبكّراً

في صمت الليلة أشياءٌ كثيرةٌ:
نواحُ طائرٍ مجهولٍ في السماء القريبة،
صريرُ حشرةٍ صغيرةٍ، خريرُ مياه البحر،
استرخاءُ الموج في العتمة، بعيداً عن أعين
المتلصّصين، أصوات عجلات فوق
القطران، أنينها موجعٌ، سريعٌ، متلاحقٌ.

ملامح انسان تتلاشى
وخطواتٌ تعبر الأفقَ دون صدى.

الآن طاولتي المستطيلة الحمراء
هادئة، تتدلّى منها
قطرات الماء اللامعة.

مشاهد من الشرفة

العتمة على شاطيء البحر كثيفة،
تغطّي السماء، الرمل، البحر.

أحياناً تقفز كرةٌ من الضوء
وتختفي بسرعة ويسر.

الوردة حمراء، تميل برأسها الطويل
على ساق من ماء.

ضحكاتُ الرجال الواقفين قرب السور
منسجمة مع النسمات الصغيرة القادمة
من البحر، تمرّ أمام الحارس الليليّ،
يحيّيها بانحناءة خفيفة، والطفلة ذات
الفستان الوردي ترسم شمساً وعربةً.

من وراء النافذة

من نافذة غرفتي أرى البحر يبدّل
أمواجه، يقفز بين الصخور عارياً،
تتبعه الطحالب العالقة بأعشاب
جاءت من مساء عميق.

من نافذة غرفتي أحسّ بنظرات
الصيّادين تحت القناديل المضيئة،
تهزّها أحلام من مرّوا قبلهم.
تلاحق وهماً معلّقاً في الفضاء الرقيق.

من نافذة غرفتي
الرجل النحيل الذي هجرته السلاحف
أمام الكوخ يفرك عينين نسيتا شكل العالم.

سيسع المكان كلّ شيء

صوت الريح بعيد،
موسيقى الجاز تدخل من ظلّ كسول.
تحرّك الأيدي شيئا في الفراغ.

أقول رومانسية قديمة.

لا بأس سيسع المكان كلّ شئ.

يركض البصر على دروب معتمة،
شجرٌ يابس في بريّة خاوية.

أقول كآبة عابرة.

لا بأس سيسع المكان كلّ شئ.
تأتي الشمس إلى الجبل، تضع يدها

تضرب اللون باللون،

والأعشاب الوحشية تنوح وراء الجبل.

لا تراها الشمس

وحده القمر يتبعها إلى ما وراء المنحنى

والحجارة الحارسة ترقب من بعيد.

أقول صدفة عابرة.

لا بأس سيسع المكان كلّ شئ.

فاصل إعلاني

يَنثر الحلم على المدينة حزناً وبكاءً وهذا الذي
يسيل لم ينته يتّجه إلى مصبّه إلى دائرة الجنون
والذلّة.

قلّب وجهكَ نحو البحر واضطجع على الماء.
سرّك الذي غلبك لم يعد سرّك وسّرك الذي تغالب
عصيّ فبأيِّ شئ تقيس الحزن؟
وبأيّ شئ تقيس الليالي؟
أصِخْ سَمعَك للغيطة إذ تضيق البراري،
وللذراري إذ يسرقها الوقت.
وقفَ على تبّة العمر غول الزمان ينفخ في الريح،
مَرّر من ثقوب الأحلام زبد الطمأنينة.
لا بصر يسيح على الساحل.
لا خطوات تصل إلى الدار.

من يعرف لا يعلو صوته

دمٌ يسيل ظهيرة الحزن،
الميّت يمشي على كتفه
مصباحُ المحطّات.

لم يعرف امرأة واحدة،
موتُه ينام على حافّة النافذة.

تركض المدينة، أيد وشفاه ورمّان احمر.
يتسلّل النهار من صبيحة الفشل.

الأمواج اختفت في السحب،
توهجت بتلاصق الأجساد، ارتجفت.

الطيور عرفت أيّ مسالك عبر الميت،
عرفت أن برتقالة الجسد تطفو
على سطح البحيرة.

بعمق وبمتعة أفكِّرُ

في قصيدة جالبة للمطر!

سيّان إن أنا حملت اللغة

أو حملتني اللغة

لماذا كلمات وليست أخرى

تنجح أن تكون في قصيدة؟

ما الذي تخفيه؟

ما الذي لا تخفيه؟

سقط الخوخ!

هكذا يسقط الناس الذين يعبرون الجسر.

حين يتعب الجسر يجلس جانباً

يتابع السحب تتشكّل حيوانات وغابات.

السحب التي في السماء من يجمعها؟

قبل أن ترحل خيول المساء
تتناثر كلمات الناس الجديدة،
تظهر الأسماك،
لا ندّعي أنها هناك لأنها فعلاً هناك.

أمام منحدر السحب
يد زرقاء ترفع سمكاً ذهبياً
وفي قفص الماء
يتثنى الأحمر والأزرق.
لا شمس تميل، لا رغبة تخبو
ولا فثور يتصاعد.
الشاطئ المزركش يفرش رمله للنائم المطمئن،
يفتح صومعته لصبايا الماء.

قرب المنزل الوردي:
ثلاث سمكات ووعل وفانوس.

ينقسم النائم المطمئن نصفين:
للسمك النادر وللعري النادر.

يجوز لطبيعة الرائحة أن تحاور زرقة السماء.

النخلات تمدّ أعناقها،
الشمس تحتها والرمل يتعرّى
ذكورة وأنوثة شامختين
من وراء الكادر: النخلة وردة كبيرة.
الشهوة لا زالت تهرب من الريح
التي سابقتها على الماء.
في المساءات الاستثنائية تحبل النخلة بالسكينة،
يخيفها الحزن، يطردها الظل من مملكته،
يذروها في سماء الواحة.

طال انتظارك أيتها الجبال:

لن تطرق الأبواب، لن تتقلب العروس.

أريد خربشة البياض

أريد من يمحو عن لساني اللغة الخشب

أريد من اقتله ليقتلني

أريد البحر منديلاً ليلة عرسي

أريد مطلقاً لا يقلقني من نومي

أريد أن أعوي مع الريح

أريد أن أفهم أغنية الحجر

أريد أن أسقط, أتبعثر في البرية.

المقبرة

رداءٌ أسودٌ، يمنع الشمس أن تقترب

يحرس جراره، يدور مع وقته.

شق , شقان, وخمسون.

يفتح بوابة ماضٍ سحيقٍ،

يطأ اللحم الهشُّ درجات المتاهة.

سقف وأدعية معلّقة وخشب أسود وأبيض

ومصطبتان من الجير الهائج

ونواحٌ طويل, طويل .....

ويغوص في الركن تراب،

يا لثقل ما يحمله التراب!

آوّاه يا خادم الأموات!
كيف يكون الكلام والعروس بين يديك،
رائحة البطّوم أول قطف لنهدها
ما أعذب الشفتين الضّالتين
ما اعمق العينين مفتوحتين على التيه.

القمح ما تشتهيه السيدة
القمح منحنياً
يقرأ في الجسد الرشيق
تاريخ الجسد
القمح منتشيًا
يصبّ الخمرة للسيدة.

وتستسلم الشهوة
للشهوة المستسلمة.

لم يعد في المدى متسع

1

من النافذة تبدو الصحراء ذليلة.

قال :

لماذا الضوء شاحبٌ هذه الليلة

ولماذا دخل العنكبوت بيته مبكراً.

على جبينه يتصبب العرق

وفي الكتاب تاريخ له طعم الفاحشة.

قال: نَفَسُ الخائفِ قصير

وقلبُ الخائفِ ضيّق.

كلّ شئ يصدأ، كلّ شئ يتحلّل.

غير أن هذي الرمال اللعينة لا تموت،

تدخل المدينة على أكتاف الريح

تعطي الصفير وحشته الأبدية

2

من هذا الطريق مررتَ يا أوريليوس

ألتفتّ إلى الصفصافة , ظلّك تحتها

لم يعرفك ولم يتبعك.

الطائر الذي بلّل جناحيه بالبحر يراقبك

وأنت تحمل الوحشة على كتفيك

وقدماك تغوصان في رمل كريه

قلتَ : ما أبعد السماء هذا اليوم.

سفن العدو تقترب أشرعة وسيوف

ومباخر تشتعل، لغط بحارة

وعرق يفوح ودهن قديم يطفو على الماء.

على يمينك تنساب مياه الوادي

وفي قلبك تنساب موسيقى.

أحنت الشمس ضفائرها

على براح مستسلم.

هل يحق للناظر أن يتحسّس زلزلة الإيقاع؟

هل يحق للكمأة أن تنتظر رجفة البرق؟

لا تسلْ فدونك مدّ هائج وخلفك سدّ.

كانت الخيل قادمة والسيوف مشرعة

كان الوقت أصفر والقضاة على جانب السدّ

يقرعون الطبل وكان الشعراء, الأطباء يحملون الميّت.

انه الجنون يتكسّر على أصوات النائحين.

لا شئ سوى نخل تضربه الريح

لا شئ سوى جمع يقوده أعمى.

3

أقدام الراحلين تتبع الدرب

صفراء مثل الأوراق التي تسقط على الأرض،

قصيرة الخطى ميتة.

أصوات تفور بين ريح وشمس غاربة.
وراء التلة، بين أنين من رحلوا ظلال الحزن
الباردة، أعمدة من حجارة ورماد أجساد هشة.

لا جدوى أن تبحث في التراب،
لا جدوى أن تطعن الهواء.
أيّها الراحل، لا جدوى أن تقف
أن تتقدّم، أن تنحني.

مياه الوادي رجعت،
والذئاب تترقّب جائعة.
لم يعد في المدى متسع
لضحك أو بكاء.

صبراتة تهرب

ها أنت ذا الآن تجلس في مقهى بصبراتة.
خمسُ فتحاتٍ في الحاجز الحديدي خمسُ فتحاتٍ
تماماً.
تلمحُ الجانب الأيمن من المسرح الروماني
تشربُ قهوتك المرة.
"لشفة الكأس كلام وذاكرة" يقول صديقك
"من يدري لربما كان السائق يعرج قليلاً"
ماذا في ذلك؟
قريبا من المرآة صورة ديانا حدّاد يبدو عليها
التعب، ترمس الشاي يغطّي نهدها الأيسر.
"لا بأس, على الشاي أن يكون ساخناً"

الكونت بيزي يعزف قفزة الساعة الواحدة
الكونتربيز يهيءُ الساحة للقفز دم بم دبم

فيما يصيح الترمبيت بصوت مبحوح.

يجب أن لا يستفيق ظلّ الحديقة، عليه أن يميل

فقط. تنزل ستارة نافذة, تطفأ شمعة

ويقترب جسدان يلتهبان.

الفتى رائع كما ينبغي أن يكون.

لم ير غير أشواق صغيرة تركض مرتبكة.

علّ هذا الجسد المعذّب يهدأ،

علّ الخيالات تغوص عميقاً،

علّ المدائن التي رحلت لا تعود،

علّ الصباح يأتي ......

يهز رأسه النادل التونسي

"رادس بعيدة الآن لم تكن كذلك من قبل

اشطيح وخلاعة، إثنين مكياطة

واحد كابوتشينو. من طلب الشقائق؟

عيّش خويا.

رادس لم تكن قريبةً أبداً"

ها أنت ذا الآن تقرأ طالعك

على صخر قديم

وانحراف جسد قديم

غلبه هدوء الكونترباز.

قفزة الساعة الواحدة انتهت.

حال

استعدُّ للرّحيل، تعبتُ من الانتظار
أريدُ أنْ افهم ما الذي يسند خطّ الأفق!
الريحُ انتظرت النهارَ كلّه والليلَ كلّه
لتركب فرس البحر.

الموجُ طرح أثوابه وانساب في هدوء.

القواقع جاءت من رغبات قديمة، تسلّلت من حقائب
المسافرين، رفعتْ أجسادها الليّنة فوق الماء، التفتتْ
إلى كلّ الاتجاهات، أصابتها الخيبة.

قطرات الندى سقطت من حوافّ العشب، حملها
النومُ في عربته، أقدامُه طوت في صعودها الحياة
وهي تتأرجح فوق العربة بشروط الموسيقى.

مدينة

دوائرها كثيرة .

الماء ولج الصخر تلوّى بالنشوة العظيمة.

شوارعها أبخرة وفلفل.

شفتها فرشت قبلتها من وراء خمارها الأزرق

على وداعة ظلّ.

حرّاسها فوق النخيل تمسح عيونهم

سقوف البيوت الطينية البيضاء.

الريح تفتح أبوابها، الريح تقفل أبوابها.

الريح لاحقت طيور السنونو،

حملت وجوه الملثّمين وراء الكثبان الصامتة.

الرمل ظمآنٌ، العشب ضامرٌ، المطر غائبٌ،

السراب مخادعٌ، السماء ابتعدت.

على خشب بنّي صنعه سيفوناي الأمازيغي وضع
ظهره بهدوء القديسين,
أغمض عينيه المتعبتين، تقاطعت ذراعاه على
صدره ضربته ريح الأبيض المتوسط من كلّ
جانب، لم تقس عليه, بألف ذراع هوائي سحبت
البحر من كمه, هزت بها أركان المسرح العتيق,
تقاطر الفرنجة من كلّ صوب، أعين كثيرة وراء
كاميرات ألمانية ويابانية.

حين رفع رأسه عالياً
لم ير سوى الخراب الكبير.
كان المنبع قد غطته شجرة ملعونة.
حاصرته كلمات هرمة, متعبة.
لم يحتمل قلبه وخز الكلمات.
حلّق بطفولته وغادر كثبان الرمال القاحلة.

لنتوقّف قليلاً

لنتوقّف قليلاً

في أول الدرب لا يُهم.

في آخر الدرب لا يُهم.

قد نسمع صوتاً بداخلنا

يفور أو يرقص

قد يكون بارداً

كجلد ضفدع.

قد يكون شهيقاً في رئة

أتعبها التبغ.

ألا ترون
أننا معلّقون
بخيط عنكبوت
على غار خوفنا.

صرنا نقسم أي شيء
إلى قسمين.
وفي تخمة الوهم
نبول على الوهم.
نغرق العالم بفحولة
لا تنتصب
وننصب خيامنا على صحراء
لم تعد لنا.

لنتوقّف قليلاً

فقط لندّعي من نبلنا

أنّ العين اليمنى لا ترى ما يسقط،

من يسقط في الجانب الآخر؟

ألا ترون

السماء خاصمت

غيم الشتاء والفراشات

لم تعد تحلّق فوقنا.

لنتوقّف قليلاً

فقط لنسكب نبيذهم

في رمل عطشنا الأزلي

ونفخر بإبلنا التي أبداً

ما نسيت مسالك الجوع والتيه

أغنية وراء الحائط

الأشياء تقف على أطراف أصابعي
الذي حملني طويلًا صار يكذب عليَ
يفتح أمامي قشرة الوقت، يخرج أصوات الناس
القديمة، يضعها في طابور المجنّدين على مفرق
المدينة المحاصرة.

ما كنت أملكه لم يكن شيئاً
وما لا أملكه لا يهمّ غيري.

أنا طائرٌ بلا أجنحة وقارورةٌ بلا ماء.

بين بداهة ساذجة وحيرة آخر الدرب.
ترتفع أعلام مجد غابرٍ مبلّلة بالدم المزيف.

أُدني من القلب هواء بيوت خانها الجبناء، علّ العويل الصاعد قلب السماء يختفي، علّ البنات اللائي لعبن تحت الميتين ينمن.

صوتٌ يُطلّ الليلة على كوّة منفى.

ما كان له أن يستريح ما كان له أن يخفي أنَته، ستقترب الرجفة من قبر المحارب والجسد يصير ناراً.

صوتٌ يُطلّ الليلة على كوّة منفى
أمامه وهم ووراءه حجر.

من فوق كتفه مرَت الدنيا.

وقوف

وقفت عاريةً،

يداها اللتان عجنتا الحنطة في الحقول الخضراء

ممدودتان على جانبي النهر،

على كتفيها وقفت عصافيرُ البر القبلي مليئةً بالبذور

والأغاني.

وقف عارياً

إلا من خطايا صغيرة غسلها في النهر قبل شروق

الشمس. بيد هزّ عصا الطاعة, وفي اليد الأخرى

حمل نداء الجداول للعابرين.

وقفا

النهار كرة تتدحرجُ والليل على أطراف الأرض

يملأ سلاله بالبدايات الجديدة.

لقب

صادفته مزهواً بلقبه الجديد، ممسكاً عصاً بيده
والنهار مستلقياً أمامه كعجوز حكيم.
أخبرتُه عن جذب الأراضي البعيدة
أخبرتُه عن القبّرات تساقط ريشها
أخبرتُه عن الاسترخاء في قيلولة لزجة
أخبرتُه عن أعمدة رفعها عمّال بطونهم خاوية

كان مزهواً بلقبه الجديد ممسكاً عصاً بيده والنهار
مستلقياً أمامه كعجوز حكيم.
سألني: هل نامت البقرات في الحقل؟
هل رجعت الفلكُ إلى حافّة الصخرة العالية؟
كانت الديدان قد أكلت نصف المدينة

بوليرو

ماذا يمكن أن تأخذ منّي الريح؟
علّقتُ على مهمازها تعباً قديماً
ومددتُ على أطرافها أسراري.
لستُ خائفاً، فهي لم تعد تسأل عن حامليها .

مقهى مبلّل بالمطر وشتائم العابرين.
كنتَ في فتحة المكان كلاماً بذيئاً،
الضوء على الباب دخان أزرق وحلوق القوم
وردية.
سُلّمهم يفضي إلى أحلام بسيطة.
باب المقهى نصف مفتوح.

قدمان تتبادلان الرقص على خشب هذبه صهد
المسافات القريبة ودهن قبلات آخر الليل.

لم يكن لي ولع بالأناشيد ولا بكلمات الوداع.
في المبنى المقابل، في الغرفة العليا:
تكتظّ الحيطانُ بالعناق القديم والعناق الجديد.
كان وقت الرقص نافذة مغلقة.
كنتُ بلا خطيئة،
أتساءل: هل هي امرأة الساعة السادسة
أم الساعة الثامنة؟

من كأس يطفر بالنشوة،
من فرح نحيل ينحني على شفة امرأة.
الموسيقى تستنسخ ذاتها على فراش اللذة
والسقّاءون يريقون عرَق الرغبات في كلّ شيء.
بوليرو بدأت الآن.

موسيقى البهو

العازف الأعمى تحسّس بقدميه أرضية البهو،
ضاربُ الطبلة شاهدَ الرغبة، ضَغطَ على الطبلة،
ضَغطتْ المرأةُ ذات الفستان الأزرق على كتف
العازف الأعمى. اهتزّت أسرار الليل، اهتزّت
أركانُ البهو بالصور المعلقة.
وحدها فسيفساء أرضية البهو لم تهتم،
انسابت ألوانها بمحاذاة الموسيقى.

لم يكن للفستان الأزرق اللمّاع علاقة بما تحتويه
الغرفة.
استلقى دون قلقٍ على ظَهر المرأة.
لم يفتح عينيه، لم ينتبه للتشيللو المتكيء بأبّهة، لم
ينتبه للمرأة في الصورة تعدّ البرتقالات وتضعها في
سلّة ارجوانية.

لم ينتبه للبيانو في الركن وهو يفخر بأرجله
الرخامية، لكنه انتبه للكرسي يسري فيه دفءُ
الجسد.
يا لرحابة العود، يا لبهجة العود!
دو، ري، دو.

من وراء كتف الصبية، من وراء عالمٍ ثريٍّ
بفصاحة الرغبات، استرقُ النظر للنوتة المفتوحة
على نافذة ناعسة، أحاول أن الحق بأصواتهم.
حبلُ كلماتهم يعلّق صوتي في طيّات الغفلة.
من وراء رؤوس الرجال المتكئين على آلاتهم
ترقص الفتيات ببطء وحياء.
نافخ البوق يتبع بجعة البحيرة إلى مخدعها.
لا يرفع عينيه عن لمعان الجسد في حائط البهو.
تنطلق الأصابع إلى الغرفة الجانبية ناعمة، غاب
عنها ارتجاف السنين العجاف.

على أوتار الكمان الطيب

تصعد آهات النسوة المستلقيات.

هذا متّكأ يستريح فيه الخريف

هذا خشبٌ ناصعُ الرائحة يحضن النغمات الجانبية،

يتوهّج في عيون لا تفارق الفاحشة.

بلهفة الاشتياق، العري يفضح تلويحة اليد الساذجة،

ينبض الصوت، يصعد الجسدَ الأليف.

أيها العازف المتجول، مرّر ضحك الأعشاب من

نافذة السماء، تحمل معها صوت النوافير البعيدة.

الطيور تقطف كلمات الليل، تملأ بها أحلامهم.

شهقات ساخنة، تتشكل دوائر على الشواشي

الحمراء.

عودٌ ونارُ بخورٍ، جلسة مالوف.

الأصوات تصعد من جدران بيوت زيّنها الطين الجبلي والنُعاس استراح تحت ظلّ العائدات من الحقل.

شاحذ السكين أشار له :

أرفع عينيك عن وعاء الألم

ما كان له سوى يدين طليقتين ليحفر في الجدار شقوقا يختبئ فيها الرجال الذين أتوا من الأماني الكاذبة.

شاحذ السكين رأى في المعدن:

لهفة تتجمّع على سطح البركة،

غابات تصلب عصافيرها على الأغصان، مراكب تبحث عن ملاحيها، أغاني أخلفت مواعيدها، أنهار تحنّ إلى منابعها، سواقي تصفر فيها الريح باردة كالفضيحة.

قصائد من أعلى الهضبة

مطرٌ يتساقط بين يديّ الطفلة،
الأشجار، كلب الصيّاد الرابض خلف الكثيب،
السحب الداكنة تأتي سريعةً من الشمال الغربي،
ترقب المشهد، تتلقّف أنفاس الضوء بين أصابع
الطفلة. الخطوات بلا عجل تتبع رائحة المطر،
ونحو البحر تسير الآمال البسيطة.
وأنا أصفّف قطرات الماء المتساقطة في صندوق
النسيان. في البيت الطينيّ نامت أحلامي،
وتحت نخلة هرمة تدحرجت أشواق العمر.
كنتُ طفلاً يتدرّب على اللغة الجديدة،
أُشبك ألواح الهوى كرسيّاً أطير به في السماء، كان
زمناً يمكن أن تحمله في قبضة اليدِ دون تعب!

الوقت ضيّق، والأقدام سريعة على الأسفلت.

من أين أبدأ بالنزول؟

أمام جمعية القضاة الوطنيين، لوحة عالية، ملوّنة

بعرض الشارع تفور منها فقاعات السفن أب،

سيارات سوداء معتمة النوافذ، تجوب الساحة،

أشجار نخيل في صفوف منتظمة بعراجين فارغة،

جافة، إشارات مرور تتبع النظام في رصانة.

من أين أبدأ النزول إلى الهاوية؟

مساء آخر يمضي.

إلى طرف الوادي البعيد،

سيأتي الصيّاد هذ الليلة،

يمرّر كفيّه الخشنتين على كتفيها العاريتين،

ويشدو الخضّير بصوته الخجول.

أخي

وقف أمام البيت

وقد سحرته السحب التي بعثرها ذلك النهار.

الراعي العجوز لوّح بيده، يتبع قطعان ماشيته،

صاعداً الجبل. لم نسمع سوى صيحته الخافتة،

حطّت على عتبة الباب.

كان في ردائه الرماديّ بارداً كالشتاء

الذي مرّ على قورينا.

هيباتيا

هيباتيا،
هل تسمعين صدى خطوات الصباح المشبع برذاذ
البحر وخطوات الصبيّة الصغيرة تضع وردة على
عتبة الباب؟
في ذلك الصباح: لم يستيقظ رئيس الأساقفة مبكّراً،
لم تهمّه صلاة الفجر، ولا الرغبة في رؤية البساتين
الواسعة، تحسّس قلبه وهو يسمع صياح الغوغاء في
شوارع الاسكندرية.
كانت أشلاؤك المهشّمة تقترب من البحر.

كلام ابيض

تنحني المرأة في ردائها الأزرق على كلام أبيض.
الضوء يحضن سجّادة المكان، يلملم أطرافها،
ليفهم ما الذي تخفيه المرأة المنحنية في ردائها
الأزرق.

العينان لا تنظران إلى النافذة العارية،
العينان لا تتابعان رقص النحلة فوق الزهرة
الصفراء، العينان تفتشان في قلب اللّحظة الخالدة
عن كلامٍ أبيض.

خرافات الكمان الحجري

I

أصنامُكَ

قد تتعدّد،

قد تشيخ ولا تموت،

قد تبول واقفة أو مقرفصة،

قد تشرب الخمر فيفيض الكلام،

قد تسير منتصبة إلى أعلى الجبل،

قد تشنّف أذانها لتساقط أوراق الغابة،

قد تفسح الطريق لظبي صغير خائف،

قد تلمع عيونها لأن أمّا تدغدغ وليدها،

قد تكون كماناً من حجر.

II

منذ أربعين قرناً وقفتْ قرب المعبد،
يداها مطويتان بفخامة ملكيّة على خصر لا سمين
ولا ضامر.
طعم الرمّان الأحمر يملأ فمها، يكاد يلهيها عن
الجياد تدخل واحدة بعد الأخرى.
لن تنشغل بفيض النور المتصاعد من أعلى المذبح
ولن تقلقها وشوشات الكاهنات ولا هدير البحر
وراء التلة العالية.
بهدوء الساميات تتحسّس نهديها وتنشر في الفضاء
فراشات المطر.
ستضحك –واقفة– وتخلع لحاف البرد عن الليل.

III

"سأذهب للقصر"

قال الجنديّ العائدُ من حربٍ خاسرة.

"سأقف تحت شرفة الحاكم، لن أرجع حتى يراني

سأخبره عن القتل بلا معنى، الأجساد المشوّهة

مغمورة في رمل الصحراء".

الضباع الشرهة تتعارك على الوليمة.

الأحلام الصغيرة والكبيرة التي لن تتحقق،

الذكريات الحميمة تبعثرت في حلوق الطير، جيف

الكلمات بلا أصوات، القلوب رقيقة كهواء الصباح

أخذتها ريح الوحشة بعيدا في الخلاء.

لو لم يسمعني سأعلن أني:

"أنا الجندي العائد من حرب السلطان المجنون".

IV

في الظلّ

قرب الباب الحجري الواسع

قرب الدرج الرخامي

يكون الجلوس في صمت:

للأرق المضني للغناء الشبق للرعشة اليافعة

ولانفلاتة الضبّ.

لعل المذبح الحجريّ بقرنيه الطويلين سيخبر عن

هذا وغيره.

٧

نار ليالي الشتاء الطويلة، توقد خرافات الطين.
على صهوة الخيال المتهتّك، حيّات الشهوات
الرابضة تبيض ريحاً ناعمة الجسد.
تفوح الرغبات في الفضاء الشاسع وتهتزّ القلوب
التي في الصدور.
ليس ثمّة من نابض في السماء يدفع بالشكوى أبعد
من حافّة الغابة، ليس ثمّة ماء جبليّ يبلّل وجه
الصحراء، ليس ثمّة من وراء يرجع للضحكات
وجهها البهيج ولا أمام يقذف بالنشّاب أحلام الفتيات
العذارى.

ليس ثمّة شيء غير نهار يبول.

VI

للقدَح الحقُّ في أن يحتفل بالدائرة،

بالخطوط على معصم الفتيات الصغيرات، بالنقطة

تفور متباهية ، بالنوارس تلقَف الحبَّ، بالحليب

ترتجف له ضروع الماعز الجبليّ، بالقلق العظيم

يبللّ حوافَ الدائرة.

الدائرة مبتدأ العالم.

VII

أهذا طائر السلّيو؟

رأيته يعبُّ الهواء كما يعبّ السكران الخمر.

يسقط طائر السليو في بئر الرغبات في بئر

المحرّمة.

بمنقاره يزيل حصى من على صدره.

لا توسوس له نفسه بالنجاة، لا يستجلب من خزانته

رائحة الماء، لا يمدّ قدميه يتحّسس الهوّ العميق

حوله.

ما يفعله هو أن يغمض عينيه ويغرق في النسيان.

هذه السمكة الملكية رأيتها تحرّك ذيلها في غنج،

في غرفة بلا أنفاس.

الأخطبوط المتوثّب يحمل تاجه في أبّهة.

في كلّ يدٍ وردة بحرّية وفي كلّ قدم محار أحمر.

VIII

في حجرة فارغة إلا من زير فخّار وأرضيّة ترابية
ونافذتين عاليتين مغلقتين بحجارة حزينة، تقف
المرأتان تحملان قارورة زيت وقارورة عسل.
من خاصرتيهما يسيل البحر صافياً أزرقَ.
على كتفيهما تتدلّى خصلات الشعر الأسود طويلة
ناعمة، وعلى رأسيهما غيمتان تمطران زيتاً
وعسلاً.

في حجرة فارغة إلا من زير فخّار وأرضيّة ترابية
ونافذتين عاليتين مغلقتين بحجارة حزينة، يقف
الرجلان يحملان طيناً وناراً.
من خاصرتيهما تنهض العنقاء بريشها الذهبي
وذيلها المزركش.
على كتفيهما تتدلّى خصلات الشعر الأسود طويلة
ناعمة، وعلى رأسيهما غيمتان تمطران طيناً وناراً.

IX

على الطريق المنحدر من الجبل تنزل النسوة
يرقصن ويرفعن بالغناء أصواتهن. الأطفال خلفهن
يصيحون فرحين وعالياً تصعد الأعلام الملّونة.
عالياً في السماء يصعد الوعدُ المقدّس وترفرفُ
أجنحة.

في الطرف الغربي من الوادي حيث تميل الشمس
على غابة.
في الطرف الشرقّي من الوادي:
سنابل قمح وسنابل شعير على امتداد جناحي طائر
كبير.
ماذا يتبقّى للأرض حين تطير السنابل
وفي السماء يلتقط الحبَّ الطيرُ؟
يتململ الوادي ويمدُّ وجهه لشمس تصعد على مهل.

X

السيدة الجالسة على الكرسي:

أنفها أطول من الحاجة إليه.

رقبتها ناعمة ومنحنية أكثر من الحاجة إليها.

عيناها كبيرتان واسعتان سوداوان أكثر من الحاجة إليهما.

شعرها متموّج وهائج وقصير أكثر من الحاجة إليه.

كتفاها بارزان مليئان أكثر من الحاجة إليهما.

ما تبقّى من السيدة الجالسة على الكرسي طال أو قصر، زاد أو نقص، سمن أو ضعف، سيكون في مستوى الحاجة إليه ولقرون عديدة.

طوبى لها ولأشيائها.

XI

لو كنتُ طائراً لأخترت أن أكون برأسين:

واحدٍ في اتجاه الغرب وواحدٍ في اتجاه الشرق.

بجناحين: واحدٍ للصيف وواحدٍ للشتاء

بذيلين: واحدٍ للهواء وواحد للماء

ومن القلوب قلباً واحداً فقط:

لأطير في الفضاء الشاسع.

XII

الطائر الوعل بجناحيه الذهبيين ومنقاره الأسود
يقف كلّ صباح في فم الغابة صامتاً يسمع:
شكوى الغزالة من صهد الصحراء وعواء الحجارة،
شكوى أزهار عبّاد الشمس من تدخّل السحب
الداكنة، شكوى العلّيق الطريّ من عناكب الجبل
شكوى الحرباء ترهقها قطرات الماء،
شكوى الزعتر البرّي تبول عليه الذئاب البرية
شكوى الخنافس تبيض في العراء في خوف.

كلّ صباح يدقّ الطائرُ الوعلُ بقدمه الصخرة
الصلبة وينطلق إلى أعلى صائحاً:
لا جدوى، لا جدوى.

XIII

الذئبُ الذُرَة، الذئبُ السمكة، الذئبُ الخنزير البرّي. كأنّ ألحانَ الساقية لم تعرف خطواته الرشيقة، كأن البادية لم تسجّل على رمالها نزول منيّه الشفّاف.

كأن الصيّادين لم يفكّروا في ألف طريقة للإمساك به. قال لنفسه حين مزقت أسنانُ كلاب الصيد الحادّةُ أطرافه وارتمت قاسيةً شبكةُ المطاردين الماكرين على جسده:

يأتي الموتّ في صورة بازلاّء خضراء يجلّلها ندى بارد خفيف أو في صورة قنفذ هرمٍ نحيلٍ في ليلة شتائيّة قارسة أو في صورة غيبوبةٍ ينتصبُ لها غرمولك. لعلّه كابوس ولعله واقع مشوّش. إنك لن تعرف حتى لو سال مخاط أحمر من أنفك أو فقدت الأرض رائحتها.

XIV

هو أبوالهول كما وصفته الكتب السرّية:
بتاج من الرمّان الطريّ الأحمر، بلحيةٍ مهيبةٍ
مصبوغة بالحنّاء المغربية، بجناحي فراشة
يرتعشان حين تسقط عليهما شمس الصباح، بأزهار
البشنين ترفع رؤوسها عالياً لتحاذي رقبته النافرة،
بالذيل يهتزُّ يمنة ويسرة في أبّهة أمام الصبايا
الصغيرات، بالصولجان على يمينه تشدّه حيّة بِكر.

XV

يذُها مزمار الآلهة تعزف:

انهمار المطر، تشقّق الصخر، عواء الذئب، نباح الكلب، هسيس الريح، نقيق الضفادع، خشخشة الأوراق المتساقطة، زفير الشيخ الواهن، حمحمة الفرس الجامحة، فحيح الأفعى، ضحك الرضيع، بكاء المظلوم وصراخ الطاغية.

XVI

كلّما عمّروا بيتاً أضافوا له نقشاً عصي الفهم.
كلّما رسم الفنان إلاهة الخصب جعل بطنها منتفخاً.
كلّما تسابق الفتية في إظهار فحولتهم كانت المخيّلة
هي المنتصرة. كلّما حاربوا تقلّبت قلوبهم على النار
التي اشعلوها لأعدائهم. كلّما اغمضوا عيونهم
تصاعد من الأرض عمودٌ من الدخان الداكن. كلّما
تناكحوا قرب الماء غطّاهم موج المحبّة. كلّما
سكتوا تكلّمت جلودهم وأيديهم وأرجلهم وفضحت
خطاياهم. كلّما تقدّموا التفتت جوارحُهم إلى الوراء.
كلّما ناموا انفتحت دفاتر أسرارهم.
هؤلاء القوم
هم الوارثون خزائن الحيرة العظيمة.

ترنيمة من القرن السابع ق.م

قوس نشّاب على ظهور رجال يسيرون صامتين رافعي الرؤوس وهم يصعدون دَرج معبد أو ينزلون الخلاء بعيداً عن حقول القمح والشعير. تلمع عيونهم وتتصلّب عضلات رقابهم حين يلوح طيف وعلٍ أو غزالٍ أو أسدٍ. قوس نشّابٍ لا يخلعونه إلا لقضاء حاجة أو جماع. قوس نشّابٍ يهيّج النساء ببروزه الفاتن فيدهنّ بالزيت ظَهره وبطنه ويحصّنّه بكلام لا يقال إلا همسا.

قال كبير الفرسان الذين قاتلوا القبلي في عين الشمس: كنّا تسعين رجلاً من أحسن ما أنجبت الأرض.

لم يعد أحدٌ غيري. التفت شيخ كبير بعينين دامعتين وهو يخطّ بعصا خطوطًا على الرمل:

لقد لبثم أربعين ليلةً هناك. ماذا جرى؟ أين رفاقك؟
ولماذا عدتَ وحدك؟

الرجال النحيلون أيديهم على عيونهم وراءهم الفتيان يحملون مناجل من حديد. طائر السلّيوْ على الأكفّ، الهمهمات مرتفعة في السماء وفي آخر الصف: صقور و ذئاب و فيلة بخراطم وأنياب كبيرة. في الساحة المكتظّة بالحرّ والعرق والكره يتلوّى المعذّبون، يصرخون ويجدّفون. كيف وصل الثورُ إلى أعلى الجبل؟ كيف جثا قريبًا من الرجل العاري ولم يقتله؟

ما يربط بين رأس الثور وأوّل السؤال حبلُ كلام تهزّه الريح. لا تدخلني متاهتك، لا تأخذ مني وقتاً هو وقتي.

إلى بيتِكَ صعدتُ، حلمتُ بالوحش ذي الذقن الأسود الطويل يرتعُ بين فخذيها، يفوحُ إكليلاً ونعناعاً

أخضر وشعيرا. السلالمُ أخفتْها الحورياتُ عن
الراحلين فلا ينتبه طريق لشيء ولا مفازة تفتح
أبوابها للثعالب.
الكثيب الناعم يتلوّى كحرف واو والراقصة بمكر
طفولي وبوشم أسفل البطن تستدعي فحولةً خامدة.
بين هجوم ظلٍّ واستسلام ظلٍّ تتشابك أيدي
المرأتين ويضغط الصدرُ على الصدر. أفخاذٌ
تعرق تتبع اهتزاز صوتين على سرير من حجر.
الحارسان واقفان أمام الباب.
خشبُ الزيتون غيرُ منتبه إلى الذي وضع على
النافذة وردة وقلّة ماء. كلاً منهما فسّر الرائحة
القادمة من أسفل الباب كما رأى: لم تنم ليلة
البارحة إلا بعد أن مسّدتْ بالزيت جسدَها، بزهر
النبع سرّحتْ شعرها الأسود ، داعبتْ حلمتين
هائجتين ولحستْ ما تساقط من عسل. رأيتها واقفة
خلف الباب، تمسح بأصابع مرتجفة حوافّ فجر

أحمر تصهل فيه الخيل الجامحة، شبقاً يقلق إناث الطير في أعشاشها.

عرّاف القرية لم يكلّم أحداً، ارتقى لوحه الوهمي العالي وسطّر حروفاً مرتجفة في مربّع الرمل.

استعارَ لسانَ طفل:

الأحجار خائفة، السقّاؤون غيبتهم دروب العطش وفي وجوههم بهتت الكلمات.

سألوه: ما الذي فرّق بين القارب وشراعه؟

فكّر عميقاً وهمس: ما الذي وصل بين القارب وشراعه؟ إذا نامت الشمس على كفِّ الأفق رحل النهار. البئر دائرة داخل دائرة. يقتربان ماء، يبتعدان ماء. دوائر تولد، دوائر تموت. التفت راكبُ البغلة، حاسِر الرأس واختفى في انحناءة السور. كان على الدليل أن يخفي اليقين عن المخيلة الماكرة. لم يبق في القرية إلا النساء، لم يبق في القرية إلا الصغار، لم يبق في القرية إلا خابيات

الشعير، لم يبق في القرية إلا زمّار القرية وشحّاذ القرية وساحر القرية وقوّاد القرية و...... حاكم القرية.

حين لمع التاج الأزرق على رأس الملك، ضحكت الشمس فوق وسادتها، حرّك الثعلب ذيله مزهوا، صاح الديك البالغ فوق شجرة السرول الكبيرة، يعلم أن جسده سيمدد على خشب بارد . ضغط برفق على صولجانه، كان فرحاً بعظمته بالدنيا ساجدةً تحت قدميه ، برقاب الرجال ذليلة أمامه، بالألسنة لا تنطق إلا إسمه. همس: لو كنتُ أعلم لكنت أنا الرسول!

وجوهُ الملوك في الحجر، أمّا وجهي فعلى الكون كله

القيصر

نيكولا الثاني، قيصر روسيا
كان سيّء الحظّ (سوء الحظ بعينه) في الثالثة عشرة
من عمره قُتل جده الاسكندر الثاني غيلة في عربته.
في حفل تدشينه قيصراً ومن شرفة التتويج راقب
أكثر من 1400 شخص يموتون تحت الأقدام وهم
يحاولون الحصول على كعكة أو شراب. "لقد كان
حفلاً رائعا حقاً" قال وهو يمسح على خدّ فتاة.
الجوع العظيم يفتح كل أبواب الشر.
في 1905 في الثورة العارمة لم يفكر كثيرا،
أرسل جنوده.

كانت الحصيلة: قتل 5000 سياسي

نفي 45000 مواطن، جلد عشرات الآلاف من الفلاحين ومئات الآلاف من الأكواخ أشعلت فيها النار.

"قد تنتهي أحلام الأباطرة لكن لا تنتهي أحلام الشعوب"

قالها رجل يعبر سرّا على زلاجة من السويد إلى هلسنكي.

هو ذاته كان بعد سنين في الساحة الكبيرة على شرفته العالية يحلم بامبراطورية نهايتها آخر الأرض.

معرفة

لا أعرف العدّ بأصابعي
لكني أعرف الأصوات في الفلوات.
لا أعرف النطق بالحروف والكلمات
لكني أحرس نهر الإيماءات.
لا أعرف السير في البساتين
لكني لا أتردّد عن مسامرة الحشرات.
لا أعرف النوم في الليالي المقمرة
لكني أهدهد الظلام كي يفشي الأسرار.

خزّان أبيض

خزّان أبيض لمعهد أصبح كلّية آداب
يلوح من وراء مستطيل معدني متقّشر الطلاء. أقدر
من مكاني في حجرة الأطباء التعيسة أن أراه،
لا يخفيه عني سوى حركة الممرضة ذات الأنف
المدّبب بمعطفها الذي يحمل:
هلالاً أحمر قريباً من القلب، عشرين زرّاً موزعة
بانتظام ، وشاحاً بخطين متوازين وثلاثة طيور
وردية على وشك الانطلاق.

إخفاقات ابن منظور في النخل

مستلقٍ على فراش من نفط الجنوب المصنع من
أحفورات ملايين السنين. في السابع عشر من شهر
رمضان المبارك في الظلّ البحريّ لبيت مليّس
باسمنت زليتن (حضارة مفترسة)، خطر ببالي حين
رفعت بصري إلى نخلة لم تطرح قط
(عقم حال أم عقم زمان؟)
كيف هو شأنها في لسان العرب المحيط لابن
منظور؟
يقول: "النخل شجر التمر. يؤنّثه الحجازيّون و
يذكّره النجديّون". (هذا لم يكن يهم الشاعر أبونخيلة
الذي وُلد تحت جذع نخلة ولا همّ المسيح؟)
و في الرُطب مادّة تسمى الأوكسيتوسين تساعد في
ولادة النفساء. لذا لم تجد العذراء إلا أن تهز بجذع

النخلة فتساقط عليها رطب جني. لم يعطنا ابن منظور وصفاً تفصيلياً تحت باب نخل.

(الأن كل العرب يعرفون النخل؟!)

ويقول في سعف:

"السعف أغصان النخلة وأكثر ما يقال إذا يبست."

"و قيل هو ورق النخل وورق جريد النخل وشوكها السلّاء."

وفي حديث ابن جبير في صفة الجنة:

"ونخيلها ذهب وسعفها كسوة أهل الجنة."

(لعلّه سمّي بذلك لأنه قريب ويسند بعضه بعضا ؟!)

"البلح هو حمل النخل ما دام أخضر صغاراً كحصرم العنب"

و "البلح هو السيّاب"

(السيّاب شاعر عراقي يعتبر من رواد القصيدة الحديثة وأصرخ بالخليج.....

ما مرّ عام والعراق ليس فيه جوع.
(هل من مفارقة هنا أم أن الأمر فيه خبث!؟)
يقول: "أوّل التمر طلعٌ ثم خلالٌ ثم بلحٌ ثم بسرٌ ثم رطبٌ ثم تمرٌ." (لعلّه يقصد ما نسميه نحن الليبيين وغيرنا في الشمال الأفريقي: صيص!؟)
يقول في باب صيص:
"الصيص في لغة بلحرث بن كعب: الحشف من التمر."
(لقد أشفى غليلي!!)
" والبُلَحُ: طائر أعظم من النسر أبغث اللون محترق الريش. يقال: إنه لا تقع ريشة من ريشه في وسط سائر الريش إلا أحرقته. وقيل: هو النسر القديم الهرم."

(حقا لقد أخفق ابن منظور في النخل).

ناي به تنوح الروح وينوح الجسد

أمام النهر جلس تحت عريشة خوص وكتّان وراءه وصيفتان ضامرتا البطن وعلى عيونهما عصابتان سوداوان. تاجُه باتجاه الشرق وصولجانُه من ذهب. الوصيفتان تمنعان سقوط ثوبه المرصّع بالفواكه والحجارة.

تحت كرسيّه قِطٌّ وجعرانٌ في طستٍ من طين.

بالزيت ضمّخ شَعره، بالحجر الكريم رصّع تاجه عالياً يرفع يديه ليقطف من شجرة الدوم عرجون بلح.

المرأة وضعت قبل مجيئه قرابين من:

لحم عجل، أرز أبيض، سمن طازج، زهر برتقال، أكواز ذرة ناضجة، وأرانب محشية بالفستق والقرفة.

هي في حجرة الصمت ساجدةً حتى تصعد الشمس
إلى دارها في السماء.
بابٌ وصقرٌ على رأسه نار.
بابٌ وصقرٌ على رأسه ماء.
جاء شعب الجنوب يحمل:
خابيات الزيت والعسل، بطّاً سميناً برؤوس محنّاة،
قرعاً بحجم بطن الكاهن وعراجين بلح أحمر
ورطباً معسلاً وخرافاً بيضاء كالثلج وريش نعام.

جاء شعب الشمال يحمل:
صفائح ذهب مزينة بالأزرق النيلي، قوارير ماءٍ
من نهر بعيد، سمكاً أزرق نادراً، سمكاً أحمر
نادراً، سمكاً يتكلم وسمكاً يرقص في ماء كالبللور.

جاء شعب الشمال:
ببحر في خرزة بحجم عين.

جاء شعب الشرق يحمل:
ساعةً رمليةً واسطرلابين منقوشين
مرآةً تلمع وقلادةً بكلّ الألوان
صندوقاً مليئاً بالنغمات ونايا وأصابع.
جاء شعب الغرب يحمل:
لوحاً عليه قصيدة شِعر تتغيّر بتغيّر الوقت.
لوحاً يحمله رجل وامرأة ناضجان تفوح منهما
خصوبة الحقول.

الراحل في عربة السنديان تظلّله أوراق الخروب.
عيناه مغلقتان وقدماه ملفوفتان بحبل من شجر
العرعار الجبلي.

يجرّ العربة ثوران
يجرّ الثورين أربع رجال ذوو بأس شديد.

نساء القبيلة خلفه ينتحبن ويرمقن من طرف خفيّ
الحرس الملكيّ الواقف على حافّة الطريق المقدس.

الراحل أخذ معه:
حوض غسيل، إناء ماء، جدْياً جبلياً، زير دهن
عتيق، كبشيْن أملحين أقرنين، سجّادة صلاة وكأس
خمر.

أمام المعبد ذي القبّة المثلثة:
صبغ الكهنة بالزعفران ثوبه، رفعت امرأته المرآة
عاليةً تلمع فيها الشمس، خلع النسوة ثيابهن وأطلقن
صيحات الفرح، رفعن أيديهن مردّدات كلاماً
مبهماً. كان حامل البخور في آخر الصف صامتاً.

يتقرفص الراحلون كحرف اللام.
رؤوسهم ميماتٌ بعكس اتجاه الساعة وأذرعهم ألف
ليّنة.

هكذا يتقرفص الراحلون حين يرحلون.
من يحمل على رأسه جعراناً في زورق الشمس؟
هذا ماسألته زهرة اللوتس وهي تنحني على مهل.
لا القرد على اليمين عرف
ولا القرد على الشمال عرف.
كان ذلك قبل أن يتحرّك المجذافان ويطفو على الماء سمك وردي. كان ذلك حين ارتعشت ضفتا النهر. يا من جلست في زورق الشمس الغاربة، لقدومِك انحنت زهرة اللوتس ورفع رأسه عالياً أسد الغابة وتمايلت في طرب سيدة اللهيب.
يا من جلست في زورق الشمس الغاربة ها قد وصلت. الغابة أعطتك ثوب النمر وريشة طائر اللقلق لتزيّن بها شعرك.

أنصت!
أصواتٌ تهطل.

للرجل جاءت الريح وسجدت.

للمرأة انتفض الحوت في قاع اليمّ.

للمرأة الثانية اهتزّت سنابل القمح في الحقول.

للرجل الثاني نامت الشهوة بلا كوابيس.

لا وقت لرفع الأيدي عالياً في الهواء.

لا وقت لرفع العينين في بوّابة الزمان.

لا وقت لخطو أو لضحك أو لبكاء.

قال طائر النهر وهو يحوّمُ في الهواء.

الراحل خاطب صقره:

كأنّك تأكل صيدك غير عابيء :

بانتفاض الريح وفوران الماء، بشهيق النار،

انفلاق الصخر والسراب السكران.

أرفع علماً مزخرفاً مرتدياً ثوبي الأبيض الذي

تحب.

وأحمل عصاي وراء ظهرك
كأنّك أمامي ولست أمامك
كأنّك صقرٌ بلا مالك أو صاحب أو رفيق.

شجرة الدوم تفتح قلبها لصقرين متوجسين.
أمامهما:
ماء زهر وأعواد بخور.

شجرة الدوم لا تقترب، الصقران لا يقتربان.
الماء كما هو ماء، وأعواد البخور كما هي أعواد بخور.
عصاي في يدي ولا شيء في البرّية.
قد أنام الليلة هنا واقفاً في غابة القصب.
أيّها الجدْي البهيّ لك انحنت زهرة اللوتس وعلى قرنيك رفرفت حمامتان
وتحت وجهك اشتعلت نارٌ حامية.

فهيّء لليلكَ سرير العابرات.
على يسارك ملايين السنين فارفع طلسم الزمن،
اقترب بطيئاً، خفيفاً ترى وجهك في البركة
المقدسة، لا تخف من حارس النبع يتقلّب في الطين
يلعب بالمعاني.
القطّة الشمس تقفز من مخبئها تقطع رأس الثعبان
الظلمة.
نورٌ ينساب محاذياً دماءً باردة.

ما الذي فعله الثعبان كي يُطعن بالحربة،
يلتفُّ لفّتين ويموت!؟

طائر اللقلق أغواه رقص الأسد الهرم.
يدخل حديقة النسيان.
هو في الشرق لقلق
وهو في الغرب لقلق.

الذين حوّلوا أنفسهم إلى وحوش لم يعرفوا أنهم مذبوحون، وأن دماءهم سالت في احتفال انشقاق وانطباق الأرض المهيب.

لقد أحضروا:

الفخد والرأس والكعب والساق.

هذه ليلته سيختفي في هيئة الطائر الغوّاص.

امرأته نائمة ، باسطةً ذراعيها على الأشياء.

وحده عار، وحدها البركة صافية تلمع

وحده القمر الليلة يضيء من بعيد.

سيغوص الطائر في البركة عميقاً عميقاً

ويغيب القمر عن عينيه والأشياء.

افتح فمك

من البيضة ستخرج

من الأرض المخفيّة ستصعد.

لا نار في بيتك ولا ظلمة أمامك.
تخرج من نهار ناقصٍ إلى نهار ناقصٍ.

ستخرج
سنبلة في فمك
وذراعاك على جانبيك
يلوّحان للطائر الغوّاص
الذي يرحل بعيداً.

ستخرج
بين أصابعك زهور اللوتس
وفي أنفك رائحة الطين المبلول
افتح فمك كما تفتح صندوق أمك المليء:
بالعطور وأواني التطهير
وقلنسوة برأس ثعبان وجلد نمر
وكأس ماء وأعواد بخور.

افتح فمك تتكسر المقابض الحديدية على رجليك
ويدقّ قلبك أنغامه القديمة.

افتح فمك
لتأخذ أسماء الأشياء عارياً وطاهراً.

تأتي الحكايات على ظهرها الفصول والقمح
والشعير والفول.
بفمها تنفخ الرياح حين تطيب.
العظام الأربعة جالسون على ريشة
لا يهتزون ولا يميلون.

لا يحوّلون نظرهم عن قلبٍ في الطين
عند مصبّ النهر.

بابان

على اليمين في الأعلى:

سلوقي أسود وعين الغابة.

على الشمال في الأعلى:

ثلاثة طيور،

ثلاث شموس

وثلاثة معازف

في صف واحد.

بابان مغلقان حتى الآن!

"امضِ"

قال الكاهن على رأسك شمسك

على ظهرك خطاياك وفي حضنك ما اتّسعت له الأرض من غوايات.

امض

زورقك سالك

في الماء يهتزّ طرباً

وقلبك خطفه النسر وأعداؤك فرحون.

جئتك وامرأتي حافيين بلا قرابين.

جئناك ليس معنا سوى

ناي به تنوح الروح وينوح الجسد.

بصولجانك ذي الرؤوس الثلاثة تدخل أرضك:

رأس للماء وكائنات الماء،

رأس للتراب وكائنات التراب،

رأس للهواء ولكائنات الهواء.

امرأتك وراءك يدها على كتفك

خفيفةً، ناعمةً، دافئةً.

أربع درجات حتى تصل:

درجة للجهل

درجة للشهوات

درج ةللضحايا

ودرجة في فهم الاختباء.

قد أكون ضئيلاً قال الأول، لكني أعرف سكينة النعاس.

قد أكون حاداً قال الثاني، لكني أعرف تقلّب الموج.

قد أكون هرماً قال الثالث، لكني أعرف غواية الطين.

قد أكون قبيحاً قال الرابع، لكني أعرف بوّابات الليل.

قال القاضي الأول:

لم تحمل قرص الشمس على رأسك يوماً.

قال القاضي الثاني:

لم تقفز في نهر عارياً يوماً.

قال القاضي الثالث:

لم تقتنص فريسة من ليل الشهوة يوماً.

قال القاضي الرابع:

لم تترك لنفسك عذراً أبداً فامض لعلك تعود يوماً.

لام بتاج النهر

لام بتاج القمر

لام بتاج الشمس

لام بتاج السمك

لام بتاج الطير.

لامات متعددة لرجل واحد ، ولامرأة واحدة،

يتقفرصان خائفين.

من صيّرك وحشاً بجسد أسد ورأس آكل نمل؟

لك أن تضع رأس ثعلب وترفع الميزان في قوس
الفراغ.
لك أن ترى تقلّب الحائرين من ثقب الحكمة
الضيّق.

لك أن تسمع بقلبك نشيج السائرين
إلى خلواتهم ليلاً وعيونهم مغلقة.
لك أن تشارك الهدهد رحلة العطش.
لك أن تقيس الهواء بخبطتي قدمٍ غير موزونتين.
لك أن تختلس النظر البريء للسابحة في حدوة
المساء.
لك أن تراقص حاملات المشاعل في صحراء
الكلام.
لك أن تنهض من الرماد أو لا تنهض.

ليس ثمّة مفاجئات في طريق مستقيم

ماذا لو أن الرجل الذي جلس بجانب بورخيس سنة
1969 عند نهر شارلز، في مدينة كيمبردج،
بوسطن لم يكن بورخيس نفسه بل عاشور الطويبي.
هل كان سيحمل معه كتاب دويستويفسكي
The possessed
أم كتاب رسالة الغفران للمعري؟
هل كانا سيتبادلان الحديث كرجلين ناضجين في
هدوء الذين يفكرون بعمق؟
هل كان يحدثه عن امكسار العرب في 1915،
1948 و1967 وكل يوم منذ الألفية الصانية؟
هل كان بورخيس سيتذرع بالصبر إلى ينتهي
عاشور الطويبي من الكلام، ليسأله عن السحر في

حرف اللام وعن نباهة المعتصم في بغداد وعن
النوافير
البالغة الفخامة في غرناطة وعن حبّه الكبير لألف
ليلة وليلة وعن المكتبة العامة في بيونس آيريس؟
لعلهما كانا سيجلسان دون أن يلتفت أحدهما للآخر،
غارقين في متعة تذوق اللحظة الهاربة،
بينما كتاب The red anthems
وكتاب The possessed يتبادلان العناوين
وأرقام الهاتف؟ لعلهما فعلا ذلك وغيره. لكننا لن
نعرف بالضبط ماذا حدث في مدينة كيمبردج،
بوسطن، سنة 1969، ذات صباح جميل قرب نهر
شارلز.

سيلين*

سيلين المدينة الفاتنة

يرنو الشراع المبلّل بماء البحر إلى سيلين الفاتنة،
سيلين السجينة في جدران الرمل الكتوم.
قال بحّار من صقلّية في حانة المرفأ:
كنّا في ثلاث سفن صنعها رجال مهرة من الغابة السوداء، محمّلين بجرار الخمر من دمشق وخشب الأبنوس من أرض السود في كبد أفريقيا، وكانت في صدر المدى المدوّر حمامات من طرابلس ترقص، وكان العبيد في أسفل السفينة يغنّون بلسان حزين، وكان المبصر في أعلى السفينة يبصر لنا.
سمعنا بحّاراً في آخر الصفّ يصفّر لحنه، كان اللحن يشيح بوجهه عنّا، وكنّا على مسافة شهقات من أرض نحلم -بها في الخلوة، وكنّا لم نزل

نسكت حين يذكر اسمها صدفةً أو عمداً، فما تلفظه
الشفتان بعيد عن اليدين، فلا تفتح فمك على حرف
من حروفها.
يقول المبصر في أعلى السفينة: إني أرى أرضاً
وشجراً ونخلاً. يصيح الرجال من على سطح
السفينة حتى نكاد نلمس الإسم. لا، لا تفعلوا يقول
كبيرنا، لا حتى نصعد الأرض.

سيلين المدينة الماجنة

بعد أن غادر السكارى في آخر الليل، التفت بحّار من صقلّية إلى النادل المتعب وقال:
كان لي في سيلين امرأة وولد، كنت أطوف في البحر شهوراً وأرجع إليها، تزيح من على جسدي القسوة والتوتّر، تمسّدني بزيت الزيتون المشعّ كأنفاس الشطّ ساعة الغسق، أمّا ما تخثّر في القلب من شكٍّ وخوفٍ وحزنٍ كانت تقذف به من أعلى وسادتها إلى فوق سور يراقب البحر.

سيلين المدينة الخائفة

قال بحّار من صقلّية وهو يجلس في ساحة الصيّادين: كنت فتى غضاً حين أنزلنا الشراع في مرفئها. في شتاء ذلك الوقت كان اللصوص على أسطح البيوت يتربصون بالسكارى واليافعين. على الحانة دلّنا بائع حمص مطبوخ، حذّرنا من خطر

في انعطافة زقاق وانحناءة جدار. قال: لا تنظروا
في عيني رجل لا تعرفونه، ولا تدخلوا بيتاً لا
تملكون مفتاح بابه، ولا تتبعوا امرأة في ظلمة
أبداً،ولا ولا ولا.

كان الشراع ملفوفاً على جسده الخشبي مرهقاً
ونعسان، وكانت مصابيح السفينة قد خبت أنفاسها.
مشينا ملوكاً في شوارعها، نضحك ونغني وندقّ
على أبوابها بشتائم ذلك الوقت. لم يكن في المكان
سوى أعين تتلصّص على فريسةٍ أو فضيحةٍ أو أيدٍ
تقبض على خوفها صامتة.

لم أرَ في حياتي المديدة العربيدة مدينة أكثر خوفاً
من سيلين.

سيلين المدينة الخائنة

ختم الراحلون إلى صحراء التيه فمها بـــ:

صفّ من أربعة مناقير وريش نعام أبيض ومنشفة بشرّابات مذهّبة وعود رمان وبرقوق مجفّف وخبز أسود ساخن.

بخيط الزمان البعيد القريب، سيلين معلّقة هناك، معلّقة هنا، معلّقة أبداً على أصابع بحرٍ أعمى.

*سيلين: آلهة القمر عند الإغريق.

سيلين: بلدة صغيرة رومانية تقع شرق مدينة طرابلس الليبية، مجاورة لمدينة لبدة الكبرى.

قلقةٌ عينُ لاعب النرد

ربما وطء أقدام وشجنٍ خفيّ، نخيلٌ واقف على
الشطّ، مخازنُ زيتٍ وماء، وفراغٌ يتمدّد في قيلولة،
أو ...ربما السرّ في تهوّر القوس أو خوف الدائرة؟
هذه الذكورة اتّكاءة في فراغ! هذه الوساوس تأتي
من رحم أنثى، الذي وُهِب خِرقة اللّهو لا يقيّده
المكان، الأقدام تشدّها الأيدي، الأقدام تتبع البصر
حيث الخيال وسوسة وتجديف، في الساحة عشرة
أشجار سرول: ثلاثة في قلب الساحة تحنّ
لاستراليا ولرذاذ المحيط البعيد.
سبع فوّهات سبع دوائر يدخلها البحر: للشرّ،
للقتل، للفجيعة.
السهم يرتفع إلى أعلى، السهم ينغرز عميقاً في
الأرض، واطئة بيوت الرعيّة، قلقة عين لاعب
النرد، متعب بحر، مستلقٍ بلا شهيق ولا زفير،

متعب طريق لا يؤدّي إلى شكّ. ما الذي رآه
الكائن الهامشي في زند المرأة البربرية؟
نمرتين فاغرتين فمّهيما لكأس نبيذ، عشبتين
ناريتين بلون الزعفران، زبد بحر وريش نعام،
قرنيّ وعل جبليّ وكرزاً أحمر، أحمر، أحمر.

وادي خاميش: تابوت بحجم البيوت، بحجم
المعارك من سهل طروادة إلى لهب تلعفر وهشيم
طرابلس.

أربعة أقدام:
قدمان صغيرتان وقدمان كبيرتان.
"ذهب الجسدان! الأقدام لا تذهب إلى أي مكان".
يقول الكائن الهامشي.
عنكبوت على سرير الملك.
رحل العنكبوت ورحل الملك!.

ما الذي تبقّى من طلميثة بعد المطر الأخير في القرن الثاني قبل الميلاد؟
لوّح المصارع بسيفه في وجه السماء وتقلّب الثائر المهزوم في فراشه مثخناً بالجراح. قائدهم حرّك رأسه فرحاً وهو يعزف نايه السحري، حيوانات الغابة رقصت حوله: الفأر والوعل والذئب والأسد والثعبان والثعلب والضبع؛ أما الطيور فاكتفت بالمشاهدة من بعيد. كان الوقت عشية ناعمة، مستسلمة، و كانت الحيوانات تنظر إلى القبّعة القرنفلية، إلى الهالة الصفراء حول الوجه المقدس، وكان الشجن يعطي السماء والأرض نكهة هاربة!
لم ترقص حيوانات الغابة حوله لكنّه أبداً سيبقى ساحر الكائنات.

في طلميثة، أمام المقهى المجاور للمتحف:
شجرة بفرعين كبيرين، ثمرها لا يؤكل، في الصيف تزهر مرتين. قيل أن مثليّا إيطاليا أحضرها من جزيرة في استراليا، لعلّ اسمها كاسكا أو شيئاً من هذا القبيل. هي في طلميثة بلا إسم، غريبة كغربتك يا سينوسيوس!.ادخلْ الجبلَ من فرجة ضفتاها عرعار وزعتر وشيح، ادخلْ الجبل فالشرفات مقفلة والبصر لا يرجع، ادخلْ الجبل واسعاً بلا مسافة وصافياً بلا خطيئة، ادخلْ الجبل هادئاً خانعاً ولا تلتفت إلى الوراء. المئذنة في أعلى الجبل نحيلة متشقّقة باهتة.
"هنا صُلبت مسعودة تحت الشمس لساعات طويلة لأنها رفضت عرض باريللا الحاكم الإيطالي"
أشار الكائن الهامشي.
"مبروكْ يا عَزيزْ الفَرَسْ اللّي عليها ساقيتَكْ جَرَتْ."
هكذا غنّت مسعودة في طهور ابنها البكر. رؤوس

جبال محروقة، ضربتها سماء الخوف، الطمع. في الأعالي، رفعوا بساط الأمل وحلّقوا إلى حيث تُحفظ أسماء المدائن والكائنات، إلى حيث تُرَقَّقُ الريح في قوارير من زبرجد وجمشد و فيروز، تُعطى للأخشاب رائحتها وللماء خفّته وسيولته وللصخور كيف تتلو صلواتها آناء الليل وأطراف النهار.

الجبل يضع مرآته على البحر، يخاف على الأسماك من شراك النجوم، من أن تتخطّفها الطيور الشاردة. يعطي الجبلُ البحرَ وسادة الصمت في غربال.

منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد لأربعين نهاراً وأربعين ليلةً، ريح المَلْثَم تسرج خيلها من رأس الهلال إلى رأس التين. تستحي البوح بأسرارها، تستحي أن تفكّ أسراها. منارة بحرية حفرتها الريح الباردة، ظِلّ السمكة الحجرية تّكسّر قلبَه في الجسد. ظلّها في الهجير فيء النمل المجنّح.

يقول الكائن الهامشي سأصف كما أرى:
"في اللامكان صمت، في اللامكان المرأة في
فستانها القصير تعزف نغمتها الشجية.
امرأة ورجل يتناوبان الرقص، امرأة ورجل
يصعدان في الهواء أو يسقطان".

أشار إلى:
حامل العطور المهرّبة من تونس والجزائر
إلى غياب شقشقة العصافير في الملاّجة.
نساء البدو بالجينز ينتظرن في طوابير السوبر
ماركت، نوكيا تطرح أحدث الموديلات وقناني
العرق الشفيف تخزّن في حُفر في الجبل الذي
خاصم كلّ شيء!.

يقول الكائن الهامشي:

"شجرة بلا بلح عليها يطلع جلال الدين الرومي. لقد رأيته بدمشق على أعتاب الشيخ الأكبر، لم يلتفت لي، كان النسوة يعبرن بوّابة السوق القديم وكان الرجال متّكئين على حائطِ المسجد يهبون الغرباء قراطيس الحلوى وكان الرومي يمسح بكفيّه باب الشيخ في نور الشمس، يمسح على صدره. كان الغريب يرقب من بعيد. ليته ينهي رقصته الصامتة، ليته يرقّ فينظر لي، ليته يصعد هاته الدرجات القليلة فأشمّ رائحة عرقه، ليته يراني، ليته يسمعني، هو سارق النظرات في ظهيرة المجد، هو مقلّب القلوب على حجر الطريق الموحش، هو من يضحك قبل وبعد أن ننام. فوق الدرج مقام، تحت الدرج مقام وعلى الطرقات تتقشر الأرض. لن يفتح الصبح خزانته الذهبية قبل اغفاءة الليل.

جوليان بيل

وأنا أقرأ كتاب فيرجينيا وولف:

The platform of time : ذكريات عن العائلة والأصدقاء.

أتعاطف جدا مع ابن أختها Julian Bell الذي كانت له علاقة جنسية مع زوجة رئيسه في إحدى الجامعات الصينية، الذي لا يفرق بين عشيقاته الجميلات والقبيحات، الذي تطوع في الحرب الأهلية الأسبانية ومات.

جوليان بيل فشل في الدراسة في جامعة كيمبردج وفشل في إقناع النقاد بشاعريته، لكنه لم يكن يحبّ ارتداء ربطات العنق ولم يشغله أن ملابسه ممزقة أو معكرشة. جوليان بيل رغم ضخامة جسمه والنظرة الجادّة في عينيه كان له قلب طفل.

الكتاب فوق الطاولة الأندونيسية الخشبية المصقولة،
سماء منتصف نهار خريفي، سماء معتمة رمادية،
عمارات سكنية، ترابية تبرز من سطوحها أطباق
الاستقبال الفضائي وعلى شرفاتها تنشر نساء
منقبّات غسيلهن.

لا طيور في الجو، فقط قضبان حديد مطلية وزجاج
متسخ.
كيف أتواصل مع فضاء لا تخترقه الشمس إلا في
غفلة؟.

لو حين

لو التفتُّ لرأيتُ البحرَ يحلّق، رافعا موجاته الخليعة
عالياً في السماء
(لماذا دائما السماء بعيدة؟).
لو استلقيتُ على حجارة البركان النائم لرأيت رمّانة
الروح تقطر أحلاماً بيضاء وحمراء ببعدين
حميمين
(لماذا دائما الأرض تعطي خبزها الفقراء؟).
لو فكّرتُ قليلا لعرفتً أنّ الأسئلة الصعبة تحبّ
الإختباء في الحيطان الطينية السميكة
(لماذا دائما الفراغ يشرح لكلّ عابر طبيعة إشراق
الفجر؟).
لو تراجعتُ بجسدي قليلاً لالتقى الفمُ النهمُ بنهدِ
العارية الغافلة
(لماذا دائما الوجد كثير الكلام؟)

لو انصتّ عميقاً لجاءتني الفراشاتُ سكرانة
ورفرفت على باب قلبي
(لماذا دائما يقول الندى للورقة الغضّة حان وقت
الرحيل؟)

حين كنتُ الحائطَ
ذهبتُ صوب الشارع و تبعت الفراشات الملونة
حتى البحر.
حين كنتُ العينَ
نمتُ ساعة الهجير و حلمت
مرة أو مرتين.

حين كنتُ اليدَ
مسحتُ القلق من آنية النار وانتظرت ولادة الكلام.
حين كنتُ الأفقَ
رفعتُ عنقي عالياً وتذوقت حلاوة الاستقامة.

حين كنتُ الحجرَ

بنيتُ بيتي على ظهر نمر راكض.

حين كنتُ جامعَ الضرائب

جلستُ على لسان البحر ورأيت نجوم الليل تسقط

واحدة، واحدة

حين كنتُ الفناءَ

رأيتهم قادمين حفاة، عراة، يهتفون باسمها

محاولة في فهم الفراشة

1

على الأشياء أن تصعد درَج الصانع في أعلى التل،
على الفراشة أن تطير في الفراغ .

2

الفكرة راوغَت قليلاً زجاج النافذة.
هذا ما شهدت به رمّانة الروح ولعثمة المغنية
العجوز، كانت الطاولة سكرانة
لذا لا دخلَ للّحنِ في رجفة الماء وفي استدارة
الخردل الناعمة، ولا دخل لطائر الحنّاء في انفلات
لحنه الكوني.

3

أسمعَ صوت البحر وعلى الجسر تجثو الكلمات أمام الأحلام الصغيرة.

تفرش السحب سجّاداتها لحيض السماء.

في قاع البحر لا ظلّ و لا عيون.

للأشياء صمتها الهادر ولأهداب الخيال الجامح زمن لانهائي.

4

استدارة الثدي في آخر الإسم تعطيه تقوّسه البهيّ، سنونوة البئر تشهد توقه للفقراء العراة؛ يشبه حبّة رملٍ على كثيب منعزلٍ

يشبه البرقوق في غرابته، وأبداً يسلك في الهروب منطق المطر.

لا أرَق الأجساد يبطءُ من طيشه ولا وشوشاتُ الينابيع تبعده عن حفل الكائنات.

هو شهوة النخل في هفواته، ومراوغة السحالي
للحائط المهمل، هو بارعٌ في التخفي،مسالمٌ، عربيدٌ،
رقيقُ الهمس، سريعُ الخطو، مائل الرقبة، أشيبُ
الحاجبين، ذليلٌ بلا خوف، غائبٌ في شبق القرنفل،
ساكنٌ ومتوترٌ، كانزلاق ضحكة على الجليد، عميقٌ
وغامضٌ كالنقطة.
لم تكن جلسة العقرب مبتغاه، ولا قراءة النقوش في
السراديب الرطبة العفنة، ولا أن يمنح الساجدين
ضحكاته الخافتة.
فقط يريد النوم وحيداً في غرفته العالية بلا أحلام.

هكذا قال وهو يعبر الردهة سريعاً
وراءه كلبه.

ملك

ليكنْ تاجك الخشبيّ بثلاثة اهرامات
كي توهب الحكمة والعدل وطول العمر.
المطرقة القصيرة، امسكها بيدك اليمنى
ليستقيم امرك وتخضع لك الرّقاب.
على صدرك علّق عناقيد عنب أسود ناضج، وحول
عنقك قلادة من ذرة السنة الفائتة.
اصنعوا عرشي من أخشاب السرول،
انقعوها بزيت الزيتون، لا تدقوا مسماراً فيها أبداً.
أوقفوها أمام البحر أربعين ليلة وليكن عليها أربعون
حارساً . ضمّخوها بطمث أربعين عذراء.
لا تخبروا بهذا من العالمين أحداً.
بهذا نَصحتْ رجالَك في عامِ حكمك الأوّل.

مطر غزير يهطل

1

رأيتُ قبل هجوم القبائل
نملاً مجنّحاً، طيورا ًتحلّق في الفضاء.

لماذ تَردّدَتُ ليلة البارحة.

لو كان لي وقت كاف
لعرفتُ عَدد سحب تلك الليلة المقمرة،
لو كان لي وقت كاف
لمضغتُ حزمة الزعتر مرة أخرى.
ما كان لي أن أنام ولا أنهض من جديد.

لم تر العين شيئاً سوى خوفها!
لم تر الصحراء سوى عويلها.!

2

لا تـهزّ عرشي،

السلالم التي رفعها الغاوون

سقطت مع الريح.

الدخان الكثيف أخذته النار.

لي ألف جناح لكنّي لا أطير.

لي يدٌ واحدةٌ ترتّق جروح الكلام.

ولي زفرةٌ أغسلها بمكر النسيان.

من أعلى الربوة البيوت تنهض ،

السقاة على حافّة الدرب يصعدون.

من اين يجيئون؟

من اين يتناسلون؟

ورمى سهمه الناريّ نحوهم.

3

ماذا تفعل المدرعات؟

ماذا تفعل الأحذية كثيرة خارج المبنى؟

ماذا يفعل البدو أمام ساحة البلدية

يصرخون بالثأر؟

4

أجلسُ، ورائي قِردُ الوقت، عارياً، يضحك، مِنْ

أصابعه تتأرجح الريح، هو لا يرغب في القتل،

هو لا يسقيهم إلا ليلاً، هو ينام ولا نعرف كيف.

أجلس، العتمة تتعبني تكبر،

تسلبني إيقاع القصيدة.

5

مطرٌ غزيرٌ يهطل في ساحة العلّيق.

العائدان من الحقل احتميا بأغصان شجرة الخروب الكبيرة.

الطفولة هادئة على مقعدها الخشبي تبتسم.

مطر غزير يهطل على ساحة العليق.

تك،تك،تك

يتواصل الغناء الكوني....

"لولا الأصفاد لقبلّت عنقك الشامخ".

لم يقدر أن يلتفت وراءه ليراها،

ضاقت الطريق بحاملي الأسلحة، البلاشفة الجدد.

مدينة ليست لك، مدينة ليست لهم.

لا تترك لسانك يتلو ما يوحى إليه.

6

خلف أزيز الرصاص ودويّ المدافع،

بين حجرين كبيرين، ترقب القطط دخان المعارك.

يكبر الحزن، ينساب صوت المغنية،

تركت لها الشوارع

طريقاً للعبور.

يرجع الصدى العذب.

"ويلك"

يصرخ ولدٌ من على دراجته القديمة،

"ويلك "

تنفلت البوارج القبيحة من قيد الماء.

الربيع لا يأتي إلا هارباً أو متسللاً!

7

على هضبة ، هبّ دبيب الارض،

يوهم بعضه بالنجاة.

على الجانبين، وقفت العاريات، الكاسيات، يقطر

من شعورهم الدهن والطيب.

لم يكن المساء غافلاً عما يفعلن.

يحاديني صوتُهن ناعماً،

يحاديني شجنٌ يتصاعد من العيون،

يحاديني نومٌ سلسٌ.

انطلقُ كالسهم.

8

وقف الحصان، انتشر التيه على شطّ الرمال

العظيم،.

أيّ طريق أمامه والمدى شاسعٌ، مقفرٌ، غامضٌ.

9

للشجرة القدرة

على أن تلهب شهوة الفصول.

للعقل القدرة

على أن يفنى.

للأشياء القدرة

أن تصير أكثر غموضاً.

"الانسان لا يعرف من هو لكن يعرف كيف هو".

يقول القدّيس توما الأكويني.

" ماذا أفعل بساقين من كلام بليغ"

يقول الغريب الجالس على مقعد خشبيّ قديم.

سيفتّش الحارس العجوز صرّته،

ويدفع درهمين ثمنا لقهوة مرّة.

صعبٌ أن يحبس لسانه في جرّة الوقت.

صعبٌ أن يأنس الكأس بالنبيذ الخليع.

الاستماع إلى يا مسافر وحدك بصوت نجاة الصغيرة

عربة الكلام تسوقها الريح.

"كنْ قريباً من الليل"

تهمسُ وجنودٌ يمرحون أمام مقهى انترنت، لِحيّهم
تغطي ثلثي المشهد
هل فاتني شيءٌ؟

هل هي نغمات لحن غرناطي
أم أصوات قرطي المرأة
النازلة درج البهو ؟

هكذا تكون الهمهمات بلا قافية.

هكذا تكون إيماءة العين لحظة النشوة.

هكذا تكون التنهيدات حارّة.

هكذا من بين أصابعها

تنفلت خيل الضحكات،

سكرانة هائمة في شوارع

من دخان.

ينام المساء

على كتفين ناعمين.

يسيل حنينٌ دافئٌ

على قارورة من زجاج.

هل فاتني شيء؟

بلاد عظيمة

لم يكن إزرا باوند بعيداً عن بيزّا حين لمعت بنادق الجنود.

لم يكن العجوز ذو العينين الصفراوين بعيداً عن فكرة داهمته منذ انكسار صوته في القرية الجبلية النائية.

هذا ما لاحظه المريض

على السرير يمين الباب.

يسمع طقطقة المكيّف في الليلة الخامسة من شهر فبراير.

أغمض عينيه يهدر صوتٌ راعدٌ.:

ارحل تقول الملايين في كلّ ساحات البلاد،

ارحل يقول التاريخ الجديد؟،

ارحل يقول المكان، ارحل يقول الزمان،

ارحل يقول الهواء المشبع بالنشوة والانتصار،

ارحل، ارحل، ارحل ولا تلتفت إلى الوراء

يا.......

طرابلس حطّت خدّها على بحر

يعرف سرّها.

على ذراعيها زحفت حلزونات

في صفٍّ مهيبٍ

طويل، واحدة واحدة.

فبايّ قرنيْ استشعار

تتحسّس الزلزلة؟

طرابلس السفائن لحظة الغوص،

طرابلس الأنين، لهفة العيون ،

زفرة المهزوم.

طرابلس شهوة النخل.

كم جاء طرابلس من رجال؟
كم تسلّق أسوارها من لصوص؟
كم تجوّل في حدائقها من عشاق؟

كم رغب في اغتصابها من فرنجة؟
كم رقّ لغنائها فجر مهمل؟
كم طاف حولها من حجيج؟
وهي كما هي لم تستعطف
من العالمين أحداً!

الظلال جاءت من طفولة ناقصة.

الخريف لمْ يصرّح بما جاءت به السحب.
والقطرة في حلْق العصفور بلاد عظيمة.

يسألونه:

من أين الصفرة في العينين والجلد؟

منذ متى غابت الأسماء

عن عتبة بابك؟

يقول في أسى:

"اليد لم تعد قادرة على الوداع الحميم" .

سماعي ثقيل: لونجا صبوغ

تسليم

أرفع قنطرتي على سماعي ثقيل

أُعيدُ سرْد حكاية الخائفين.

كم اصبعاً معلّقاً على حَبْل الحِكمة؟

كم سؤالاً في الخزانة الصدئة؟

كم سماءً تتلو شهادة دفن لأبجديّةٍ طِفلةٍ؟

مكانُ المناحات واسعٌ، لا فاصلةُ المعنى تحتويه ولا

شاردةُ الأغنية العاطفية تضفي عليه هيبة!

دم إس إس – تك إس – دم دم – تك إس إس

الحركة الأولى

من الظِل يخرج الحالمون فرادى
وأنينُ الناي يتشظّى أغاني في المدى.
يقولون أن البعد غوصٌ في شلّال الفجيعة،
أن الصوت حاشيةُ الرؤية،
أن الرائحة بيتُ الفؤاد الضليل ،
أن السريرة الشبقةَ تنام وتنهض
بلا قدمين يسندانها في الفراغ
أن الوقوف بباب الحبيب شجنٌ خجولٌ، أن الصباح
يأتي دائماً في إشارة استفهام.

الحركة الثانية

الرضا بالسماع الأول كرامة،
التنهّدُ الهامسُ على حصير الرعشة كرامة، فتُوّة
البلاغة على مدخل بابا عمرو كرامة، السكينةُ
المتدلّيةُ مِنْ يد الصبيّ البالغ كرامة، الحمّى الباردةُ
على جبين المغنّية العجوز كرامة.
وجب السكوتُ إذنْ وحَمْلِ ما تبقّى من نوم الشُعراء
في صرّة المساء.

حجرٌ يتبعني كراحة يدي،
لا يصدق أني أطلقتُ سراح سمائي من قبضة
التراب لا يصدقُ أني أخفيت سَمك النهر في عشبة
زعتر برّي
هو لا يفهم رقص الضحك عارياً في الليل الشتوي.
لكنه يعلم أن الكلام يخون.

الحركة الثالثة

الكون يلتقي في حنجرة المغنّي المقتول،

الكون يتلاشى كبخار ماء في عشيّة.

حين يفرد الوهم عباءته على سحابٍ

عابرٍ يصعدُ بطيئاً نَفَسُ النّاي،

تلملمُ أحشاءه أصابعُ الحزن.

هاتها، هاتها، هاتها، هاتها

حُرّية

هاتها، هاتها..........

الحركة الرابعة

تسبقُ الالتفاتة تنهيدةَ البرتقال المستكين، وتخفتُ

أضواء النافذة المفتوحة على تيه الجالس في المطبخ

وحيداً.

لا يفتح فمه بكلمة ولا يحيدُ بنظره عن معطفها

المُلقى بكسل على حافّة السريرْ.

كيف لهذي السنين أن تفهم دحرجة الدمع؟

أن تُعيدُ خيال سردٍ طويلٍ حميم؟

أكاكوس

1

ارهف سمعك وضع صدرك على الرمل.
صفحة السماء مفتوحة وراءك،
وحزنك أغلق عينيه.
حاول جاهداً أن تسمع صهيل أفراسهم،
انسكاب مائهم على الأغاني.

كنت تودّ أن تقول شيئاً، لكنك فتحت فمك،
فقط فتحت فمك.

2

لم تخدعك الريح ولا صرخات الرمل.
هل كان عليك أن تموت واقفاً؟
أم أن حنينك إلى قوس صخرتك يناديك؟

3

رملك،

ورملهم،

هواءٌ يرقد

فوق هواء.

4

وجاءوا

بألبستهم الجلدية المزركش،

العبيد السود، العبيد الصفر،

النساء الفارهات

وراء ظهورهن تلمع

رؤوس سهام مسمومة،

الراجلون المتجهّمون يدقّون برماحهن صهوة

الأرض.

5

بباب كهف اقتنصتَ الريح العاتية

بيديك العاريتين، كان الحصى

مستلقيا، مليئاً بالكلمات.

بحثتَ طويلاً عن سرّة القدَح،

عن الألواح تصعد من فرْج الأرض،

عن ماءٍ ساخنٍ يفيض

6

بلا كللٍ، تعود شمسٌ ويعود ظلّ.

7

من هنا طريق ومن هنا طريق

وأنت تُدَوِّرُ بعض آهاتٍ على حجر.

8

أكاكوس يغرفُ من نسيم الشمال

شبقَ الغيمة الغائبة.

هل يفضح الصخرُ أسراره؟!

هو لم ير غير بحر رمال ورياحاً خليعة.

سيحوّمُ ما شاء، باسطاً جناحيه

فوق الحمادة الحمراء، منتشياً.

أكاكوس: سلسلة جبال في اقصى الجنوب الليبي كانت مهداً لواحدة من حضارات ما قبل التاريخ.

الصعوبة دائما في أول السطر

الكلام

هي ليست من شجر،
من بحر، أو لسان شيخ.
هي ليست من لسان امرأة
تغسل قلبها، مِنْ غَزَلٍ
لم يجفّ بعد.

هي وشوشات أرانب
في حفرة وراء تلّ، في بلاد ترتفع فيها
أعلامٌ بأهلة ونجمات وسيوف.

الباب

مُرٌّ فراق صفير الرمل
وشهيق الرجل الخائف.

مُرّةٌ انحناءة المغنية
لخاطرٍ أحمر في مخيّلة هاربة.

ليس غايتي أن أقرّب بين المستقيم والدائرة!
ليس غايتي أن أفكّك ضحك النهار ،
ليس غايتي أن أنصب مأتماً لبّلاغةٍ عجوز،
ليس لي إلاّ شفةٌ خائنة.

وجع

سيطول بنا الطريق،

سيطول بنا النواح على مجازٍ قديم.

الحوائط تفخر بالساعات

تدور كثيران معاصر الزيتون.

لكلّ شيءٍ استعارته

ومن فوق كتف الجبل

حيرةُ الدليل

تلامس خفيفة يد الزائرة.

الصعوبة دائماً

في أول السطر!

الهوى سكن الريح

مدخل 1

بحر ممدودٌ نخلٌ قصيرٌ، فراشة بيضاء، قبرُ
ترفرفُ رايته، نبضُ عشيّةٍ وديعة، شجرةٌ مائلة.

جاء، خلفه القرى وأسماؤها، تمَدَّدَ فوق وسادة
الغيب.

"التفاتة الجدجد تفجعُ اليرقات الصغيرة الصفراء،
ارتطام الكلام على شغب القهوة، أزاح الستارة عن
العينين رمى الجرس الملعون في الهاوية".

لوّحَ بيديه مرتبكاً.
"الهوى ينتظر عودة الراحلين، الهوى سكن الريح".
من وراء شكِّه خاتل الوقت

كي يسمع قصيدة الفراغ العظيم،
كي يضمّخ بزيت غفلته ضفائر الكون.
"خطوتان فقط تبعد قدماه عن درج الساحة،لأكثر
من ثلاثين شتاء لم يستطع عبور هاتين الخطوتين
أو يشارك الراقصين جسارة الإنفلات!"

شجرة التين البرّية تسقط أوراقها هادئة، غير لاهيةٍ
عن صهيل الفحل الهائج في المرج القريب ولا عن
رفرفة السكينة في رداء الأعمى يتلمّس في العاصفة
صوت بقرته الوحيدة.

"رسم وجهاً ومن على الرخام البارد
التقط لهاث الليل خيطاً خيطاً
وعلى فم البئر علّقَ آهة أو آهتين".

النورس الذي هتك سرّ صحرائه، يشير بسبابته إلى
وجوهٍ تغضّنت في النسيان.

ليس صدفةً أن تنام البلاغة على باب الشاعر!
ليس صدفة أن تراود الأحلام القناديل المطفأة!
لا، لا،
ليس صدفة أن تحاور الشمس زهرة المسافر
الغريب! في منتصف النهار تماماً عند انحسار
الظل جاء الرجال يحملون الفصول إلى شرق
القوس جاءت النسوة يسبقهن عطر الصندل وكثير
من العويل، جاء الصبية ينثرون الكلمات وخيوط
الزعفران، جاء الموت، من وراءه موت، ووراءه
موت، ووراءه موت.......

مدخل 2

نعاس الوردة، رقّة الإيماءة، شحوب المفردة، شهوة الساقية، وشوشة العتمة، حنين الشجرة، كلام الفقيه، خيبات العتبة.

"أراوغ ،نفسي أن تسمع فريد الاطرش في مقام
رمل الماية قبل أن يتم الفجر دخوله في النهار".
سيقطع النهر بيديه، لن يزيل عنهما
غبار السهر وعرق الأغنيات العاطفية
بيديه أيقظ جعران الفلوات، سرق من على السرير
نكهة العروس، و داعب تحت نافذة الفجر نهد
السماء الأحمر".

خيط دخان

1

وقفوا في أول الصفّ،

سووّا عباءاتهم ،

تحسّسوا الريح بأصابع مرتجفة

وتقدموا رويداً، رويداً.

2

هنا حطّ الهدهد الظمآن منقاره،

هنا تسابقت خنفساء وجدجد

على قطرة ماء،

هنا اتكاءة عروس متعبة،

هنا بيضة الضبّ المخفية في الرمل،

هنا حصى بعدد الأيام الراحلة والقادمة.

هنا سمعت شهقات تتلوها شهقات.

ظلمات

ظلمة تتلوها ظلمات.

ظهري على حائط الكفر
وكفّي تساقطت أصابعها
وفوق رأسي يرفرف هدهدٌ
شممتُ رائحة خوفه.

سأغلق هذه الكوّة المظلمة.

لا تُقلق هلوساتي،
لا تنتظر حتى يهدأ الغبار
لا تبعث أعوانك مغلّفين
بالضوء الزائف، إلى شوارع مملكتي.
سأغلق هذه الكوّة المظلمة .

صداع

الصداع في نهاية الأسبوع يبدأ بسيطاً
كارتجال على الكمان. لذغة أو لذعتان في العين
اليمنى. الساعة السادسة الآن، الشمس تميل،
تتريث عارية بين نسوة يتهامسن متحمسات وفوق
قوس المكان تصطف في أبّهة أزهار الصبار
الصفراء. باذخة زاوية الصورة، باذخة فكرة عالم
النبات عن الفطر الأبيض الناصع في جذوع أشجار
التوت، باذخ هدهد يفتح تاجه في الفضاء الفسيح.
يتصاعد الارتجال غير غافل عن طائر الخضّير
يستقر في وقفته على سور طيني وفرسان النمل
تحرس الحمّالين المنهكين، العائدين إلى بيوتهم.
الصداع في نهاية الأسبوع كرشرشة ملحٍ على رمل
مبلول.

قدمان من غبار

الحمار الأشهب:

قدمان من غبار وقدمان من برق.

بيدٍ لا ترتجف، اقبض على خيط السماء، اسكت
أنينها الطويل وأقايض سكينتي بشهوة الانتظار،
بثقل العالم بين سبابتي ورائحة الليل، برفاق
يملئون الساحة الآن، ببكاءٍ خافتٍ في آخر الزقاق.

يحكم شعبه:

بخديه المحمرّين، المكتنزين بدهن الضحايا، بقبّعته
العسكرية المشبّعة برطوبة الخوف، بحزامه
الحديدي ويديه المثقوبتين، وبفزع مختبيء في
العينين الغائرتين.

كلّ صباح تفتحُ باب البيت،
تمعنُ البصرَ في حمرة فستانها،
تومىء في خفّة إلى طائر القصبي،
وقبل أن تُدخل الدجاجات وديكها،
تمسك بمكنستها وتستغرق في الأحلام.

يحب أن يلعب مقلوباً على رأسه،
يخرج لسانه إلى المارّين تحته،
يعيد على مهل اسماء الممثلين والممثلات.
"قريباً سأكون شرطيّ القرية الأوسم" يقول لنفسه
ويُطلق ضحكته المقلوبة!

تخفي سرّتها عن أصابع الكون،
تطحن الكلام بين حجرين، وفي القيلولة تبسط يدين
ناعمتين إلى فلفل برّي.

شجرة الحِنّاء

اليعاسيب لم تعد تسكن ذرّافة الباب،
اتّخذت شجرة الحنّاء بيتاً لها.
هذا وقت ازهرارها،
وهذا وقت احتفال الشهوة لها.
الفقيه الأعمى بنى سوره الطويل،
حتى مدخل الجامع.
قبل صلاة العصر يرفع صوته عالياً
بأغنية محمد عبد الوهاب:
"خي، خيْ ليه قاسي ليه يا خي".

ماذا يرى في العتمة.
ماذا يسمع في العتمة.

طرابلس

علتْ الأسوار حول طرابلس.
كلّ يمضي إلى حال سبيله،
في الحزام بضع رصاصات
وفي الحلق حرقة تبغ رخيص.
سيئاتنا لا تمحوها الحسنات،
لا حسنات لنا!

ضحكاتنا نخلطها بالعقاقير
والكآبة الأبدية.

كلما قطعنا جزءاً من حبلنا السرّي،
صارت خطواتنا أقصر، صارت السماء
لا تستريح إلاّ على أكتافنا.

الطلبة الشغوفون بالكسل وبالقهوة الحلوة، يهرولون
خلف قائد جديد.
في المساء، يفرغون لغط الشارع،
يرحلون بلا زاد، بلا نصائح من الأمهات.
لم تعد الشبابيك تفتح إلا على أحزان،
ولم تعد تنتظر اتكاءة العاطلين.

ليس لي وطن!
لا بأس، لديّ
كأس شاي وورقتا مريمية.

جولايا

على بوابتها يقف حارس الطرق الصحراوية وإلهه
واناامان يضحكان ويعبسان. جولايا مدينة دفنتها
الرمال في القرنين الرابع والخامس الميلادي، تمدُّ
أصابعها شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً. للعسكر
دارتهم وللمدنيين داراتهم ولهم جميعاً مقبرة واحدة.
جرار من شحّات بأختامها وجرار بلا اختام نسي
الصانع أن يترك اسمه عليها. صار المعسكر
دكاكين وفرناً للخبز ومقهى. من هذا المكان
عبرت الزلازل وهاجرت المياه آبارها وفي ليل
بهيم تلاشت نباتاتها واشجارها. لم يتبق في
المخزن غير زيت قديم وبعض غلال.

جولايا: الاسم الروماني القديم لمدينة أبو نجيم الليبية.

كلما تقدمت في العمر

1

كلما تقدمت في العمر نقصت كلمات معجمي،
صرت لا أرفع رأسي عالياً لأري ابتسامة زوجتي،
وطيف الرعشة على الجهة اليمنى من جبينها حين
تغضب
أو تشعر بالحزن من حماقاتي.
في الصبح اسمع صوت تنفسها صاعدة الدرج إلى
الدور الثالث، حاملة افطاري. رقائق الذرة، حليب
ساخن، اصبع موز، وشاي احمر مع ورقتين من
مريمية زرعتها السنة الفائتة.
صرت ابصر في عيون الشباب شفقة حين أقف في
طابور الخبز أو حين آخد وقتاً أطول في عبور
الشارع.

2

مرّ هذا الشجن الحارق عن الأمكنة التي لم أزرها، الظلال التي لم أتفيأها، الضحكات التي لم أضحكها، الأحلام التي لم أحلمها والعدد الهائل من القصائد الرائعة، يكتبها شعراء بلغات مختلفة ولم أقرأها.

3

كلما تقدمت في العمر

صارت مشاعري

سهلة الكسر.

البرج

سقطا عقربا ساعة البرج.

سقط الطلاء الأبيض.

سقطت زفرات النقّاش العجوز.

سقطت نظرات المثليّ الجالس في المقهى.

والحمائم التي أتت مبكرة لم تجد في ساحة البرج

سوى همهمات النسوة ووقع خطوات البحر.

لانه لا ينظر إلاّ إلى عين نفسه،

يعود إلى بيته خفيف الكتفين.

للنادل أيضاً وقته وقهوته،

للراعي،

للمحارب،

ولحالبة البقر.

بين الحجر استلقت إيماءات الصبايا.

بين الحجر مدّت بذرةٌ جذر أنينها.

بين الحجر تذيب الحنّاء النوم

في عينيّ المرضعة المتعبة.

هذا مكانهم، حين جنحت بهم الريح الشرقية،

رمادُ نارهم مازال ساخناً، وصدى بكائهم يتردّد

في الوادي.

المحاربون، والصيادون المهرة على الجانب الآخر

من الجبل، لم يعلموا أن القبور في انتظارهم

وأن الفجر لن يجيء.

الولد الأرعن، يقود الناقة مقلوباً

كان المطر غزيراً والناقة فرحانة.

الأرض كأنها لا ترى ما يحدث!

دقّقْ النظرَ سترى الطرق والمسالك،

ستری الرجل الملثّم يعيد القافلة إلى إيقاعها الأول،
وقاطفات العسلوز يجمعن الهفوات الغضّة،
ينصبن الشهوة خياماً للعابرين.

قرب بيضة النعامة، تفوح رائحة يدها!
لن تخون الذاكرة، يسمع تلاشي الكون ساعة
الغروب، يتذوق خبز تنورها وفي القدح يستعيد
مراراً برق عينيها.

الكمان

على كتفه كمانه.

على مهلٍ نزل المنحدر معه نزلت الأرانب،

معه نزلت النسوة الأرامل، معه نزل الشرطي

والقواد والعاهرة، معه نزل الأعمى وضارب

الطبل.

رأيت قبضات أيديهم تضرب الهواء،

الدم يكبر ويكبر.

في الساحة تؤنسهم وحشة الشجرة، وأنا يؤنسني

كمانا مينوهين وغرابلّي يعزفان مقطوعة:

هذه الأشياء الساذجة.

ألمحُ ابن عطاء الله السكندري جالساً على عتبة

المقام. ليس من جنون أدخل ساحة الراقصين.

لا شيء يُهم، حتى هذه الخنفساء،

تحاول الآن المرور بين خدي والحجر!

السلاحف حساءهم اليوميّ

من تمنهنتْ البعيدة يأتي بالسلاحف – حساءهم
اليوميّ– تجّار الجِمال والعبيد،
ومن ترهونة أزيار الزيت الشعشاع.
الأرض هزّت كتفيها فتساقط حجر وراءه حجر.
لم يعبر الحالمون باب الانتظار! لكن شهقات
الأمهات ساعة الطهور المقدّس حرست بداية
الحكاية.
في ضحكات البالغين فصاحة جسد الليل.
في أحواض الشهوة المترامية تيه الوقت وحيرة
الدليل.
صفّفتُ أورادي وانشغلتُ بك.
ليس بيني وبين الضوء الخبيء
غير قدمين أضاعتا الطريق.
الضوء الخبيء يخاف كلّ فمٍ لم يقلقه جوع.

أعوام

في عشية الثاني من شهر يونيو، عام 1973،
بنّاؤون يحفرون قواعد لأساسات بيت في منطقة
السلماني، بنغازي، قطع أحدهم سقف ضريح، قال
كبيرهم: قد يكون في القبر خبيئة أو ذهب، دخلوا
قبل أن تمنعهم عتمة الليل وحراس الحاكم المجنون،
خرجوا وعلى ملابسهم غبار أنفاس ميتة.
عام 1975
وادي سوف الجين صار مرجاً مزهراً بعد فيضان
كبير. الرعاة الذين أخذوا قطعان ماشيتهم بين
فرعي وادي ميمون، وقفوا فاغري الأفواه حول
أطلال القصور.

في اتكاءة الوادي، في الجنوب الشرقي من بني
وليد:
أحجار كبيرة متراصة في سماء صافية، أهذا قصر
ملك شديد أم قرية أناخت إبلها في قاع هذا الوادي
الموحش؟
أواني فخارية للزيت القادم من مسلاتة، أواني
فخارية بلون دم الطرائد في الصحراء، شريط
أحمر رفرف ذات ليلة على جبين عروس غادرها
حبيبها منذ شتائين طويلين باردين.

عام 1976 وعام 1977 كانا بلا مطر. شتاء بلا
مطر وربيع بلا مطر، غير أنّ القائد الأوحد أمطر
كراهية مرّة وجنوناً لا يحتمل.

"في إبط الرمل، تنام السكينة" قالت الريح. أعشاشهم
ركام وقت حزين وجوع.

إلى هذا الحدِّ من حائطهم بناه رجل من واداي،
تركوا حبل آلامهم يصرخ في الليالي المظلمة في
فراغ الهروج المخيف. وإلى هذا الحدّ بناه: فتى
مسحور، يرفع الحجر بغنائه وكان لا يبني إلاّ ليلاً.
توأم الحائط رآه رحّالة نصراني في قرزة. قرأ
حروفاً مبعثرة، بشفتين مشققتين وعينين نعسانتين.
"لا معنى لرمل أسود بعمق 8 سنتمترات! لا معنى
لمستطيل فيه 6 تيجان متآكلة و3 أعمدة و8
أساسات مبعثرة على الرمل!"

بعيد هذا الركام عن ركن مدوّر، ناعم لقصر، لعله
برج حراسة، ينصت للريح وحكايا القوافل الشريدة
في الصحراء!

فن الحرب

ضع خطّاً هنا، ضع خطاً هنا،

تماماً فوق هذا الرمل المتراكم كالأحزان،

وقِفْ صامتاً، سترى الزورق الملكيّ،

على صفيحة البحر الغادر،

سترى جرار الخمر التي قذفها

البحّارة الغاضبون، سترى الأغاني الواسعة

والأغاني الضيقة في قصبات الأودية، سترى يدك

تمسّد نهدَ الوصيفة من تمبكتو، ويدك الأخرى

تلتقط الآهة الوحشية من فم الغزال.

ضع خطّاً هنا، تماماً فوق نخلٍ لم يعرف سرّ

السؤال، واضطجع أعمى

على سرير تركته كائنات الليل.

شقفٌ أحمر

شقفٌ أحمر من طرابلس من القرن الثالث
الميلادي.
الشقفُ بابُ السماء، يحلم بالبحر وبنساءٍ ينُخْنَ
بشعورهنّ على صوت المغني السكران أبداً.

لماذا يتلصّص شقف أحمر على مقبرة قديمة؟
لماذا يقذف منيّ المنبوذين ذوي الرؤوس المفلطحة
على رمل لا يمسك شيئاً؟
الشقف أنين الجنّ الجرحى.
وُجِدَ مكتوبا بلغة التيفيناغ على شقفة:
اترك ما تجده على الرمل ولا تتبع رائحة الحنظل
المسموم.

ينايِر المبجّل

من الحائط الشمالي الغربي، من على بعد أربعة أمتار، حطّت تنهيدة الصبيّة، خفيفة ناعمة. الراعي ملأ مخلاته بجبن يابس ودقيق شعير وزيت حويل.
 للحائط لسان وعيون، للحائط شمس وقمر وسماء، للحائط رعشته ساعة تحبل النعاج.
في يناير المبجل، في الليل ينهض خيال رجل طويل، يطوف على القرى القريبة والبعيدة في الوادي، يجمع حبات الزيتون، وفي جرار كبيرة يصفّفها حول عمود المعصرة. يكلّمها واحدة واحدة، ويسمّيها بأسماء الرجال الصالحين والنساء الصالحات، وفي انتظار رحيل القمر يرفع صوته المرقّش بالحكمة عالياً.
قلتُ لهم حين نزلنا من الجبل، لا تقلّبوا بأيديكم رماد الأجداد، ولا تضيفوا حبّة هيل لقهوة تشربونها

تحت قمر ساطع، وبعد تردّد طويل، قلتُ لهم
الأرض ليست اسماء وأسوار ونوافذ عالية، الأرض
هفوف القلوب ساعة أو بعض ساعة، خدّ يحطّ فوق
خد، أغنيات دافئة في حناجر الطيور. الأرض
فجيعة وضحك. كنّا قد وصلنا سهلاً يمتدّ بين
كثيبين عظيمين على بعد ستين فرسخاً من
ونزريك. كنا نلتذّ برشح ندى الهواء البارد على
شفاهنا وكان الصباح يهرول وراءنا، وأشجار
الطلح تمدّ أعناقها كي تتابع المغني الزنجي. عندما
نأوي إلى أسرتنا، فوق عمود عال، يبقى خلفنا
واحد منّا يستكشف البحر عن زورق متسلّل أو
سفينة بستين مجدافا، كلّ واحد منّا يعلّق جرساً
نحاسياً على نتوء خشبي في أعلى جدار بيته، نبعد
به الأرواح الضّالة ونوقظ به الطيور العابرة أرض
الشك والخوف.

الرحلة

وضعوا لحمَ خنزيرٍ برّي زاداً للطريق الوعرة،
وتحت شجرة الخرّوب رفعوا على ثلاثة نصب
حوض فخار مليئ بالنبيذ. كتبوا بأيدي صغارهم
تحت عين الكاهن الأكبر، تعاويذاً للطير وللطرائد
المختبئة في الصخور والوديان.
قالوا: ذات نهار أو ذات ليل ستخرج الأدعية من
الظلمات، ثم ذهبوا صامتين إلى نوم طويل عميق
بهيج.

مرآة ذات يد

كتب كثيرة اقتنيتها، تبقى لسنوات دون أن
أتصفحها، لم يأت وقتها بعد! أو لم يأت وقتي!
حيوات كثيرة تستلقي منتظرة، مغمضة العيون. لا
تشكو ولا تتألم. إن نازعتها رغبات تهتك أو زهد
لم تنكرها على نفسها. قريباً سيمتلىء الجدار
بالأوراق والصور.
في الصفحة 218 من المجلد الثالث عشر والرابع
عشر، 1976_1977 لمجلة ليبيا القديمة التي
تصدرها مصلحة الآثار بليبيا: صورة لمرآة ذات يد
اكتشفت في منطقة سيدي حسين، بنغازي، ويحتمل
أنها تعود إلى النصف الأول من القرن الميلادي
ويحتمل أن تعود إلى عصر الأمبراطور تيبريوس.

جاء في الصفحة 42 من نفس المجلد:
هي مرآة ذات حافة شعاعية (أي متعرجة) غير أنها للأسف مفقودة اليد. زخرفت من الخلف بمجموعة عادية من الدوائر المتحدة المركز. يبلغ طول نصف قطرها 5.6 سنتمتراً. انتهى الاقتباس.
سبعة عشر شعاعاً من شمس غربت منذ قرون، من سرق يدها؟ ربما لا زالت في يد السيدة، التي تمشط شعرها في صباح بعيدٍ في بنغازي؟ أو هي ذات اليد لمرآة في حجر امرأة في سيدي حسين وهي تتابع أخبار الجزيرة؟
أو ربما إن تمعنتُ جيداً في صورة المرآة، قد أرى تقلّب الشهوات على سرير في ركن الغرفة، وكسل الضوء الصباحي تحت إفريز النافذة ، وقد تتّخذ المرأة عند كلّ شعاع وضعاً لذيذاً بهيّا.

عن الغبار والشعر وماثيو سويني

ثربانتس ، بورخيس، خليفة حسين مصطفى، فجر
هذا الصباح، المرأة الحارة في الإعلان التليفزيوني،
حائط متهدم، عود ثقاب ولفافة تبغ مستعملة.
"سأنهض وادخل حانة الغرباء"

لعلّه النفير الأخير، لعلّه شبح بلاغة مقيمة في البيان
الرسمي!.
هاتها قطرة الماء من بين شفتيك
هاتها كلمة لم تزل نائمة في الدار
هاتها ولا تتعجّل خطاب الرئيس..
انتظرني أضع حدائي، أقبض قبضةً من أثر أغنية.
أنا على وشك القفز، انتظرني....

البارحة حلمتُ بقصيدة عنوانها:

نفض غبار ماثيو سويني الشعري، أو لعله نفض الغبار عن ماثيو سويني؟!

جلسنا على السور الحجري، أنا وصديقي جرّاح الأورام، كان مرتدياً معطفه الربيعيّ الأزرق، ويكثر من الالتفات، لم أسمع ما تحدثنا عنه. قذف بعقب سيجارته المشتعلة إلى ما وراء السور، تسلّقت السور رأيت النار تأكل الأعواد الهشة الجافة تحت أشجار الغابة، نيران حمراء صغيرة تتزايد بجنون، رأيت أشجاراً واقفةً خائفةً، عاجزةً. صرخت، بدأ الجرّاح يهيل التراب على النيران التي تردّ بسرعة انتشارها، خرّ على ركبتيه أمام قبر أبيه باكياً بحرقة ووقفت وراءه، والأطباء الصغار في مكتبهم أخبروني أن علاجي يستوجب استخذام طريقة جديدة باستخذام غلاف جدار الخلية. كنت حزيناً وخائفاً، أقتربت من الباب الخارجي، وقفت ابنتي بجانبي أمسكت بيدي، لم

تكن أكبر من عشر سنوات، نظرت إليها من أعلى
كان الدمع يملأ عينيها، مشينا إلى مكتب الأطباء
الصغار وهم يتحدثون عن الانتخابات ويطلقون
النكات، وراءنا وقف شاب، سألنا بأدب عن المكان
ومديره ثم أخرج فقّاعاً بشكل قضيب وقال هل
ينجح هذا في علاج الأورام وغاب في ضحك
هستيري وهو يتراجع نحو الباب. ليس ثمّة علاقة
حتى الآن بالمدعو ماثيو سويني أو بشعره.

مديح الشاعر

لوحٌ بطول يد رجل بالغ على أحد جانبيه سطّر
الحالمون أغنياتهم، وأعطوا لكل زهرة
اسمها ولكلّ ريح شراعاً من حرير.

كان الشاعر قبل التمساح وقبل السلحفاة
ملكاً على الطين وملكاً على الماء.
الشاعر أخفى في النهر كلام الأنبياء.

في عينيه نام الوقت طويلاً، وعلى الحجر ترك
نابين وانتفاخين ينبضان على مهل في سكون
الكون.
انكشف بصر الشاعر، وانفتحت البطحاء أمامه،
تلمّس نقرة العصيان وحوّمَ قدر استطاعته على
عرش الهفوات.

مديح النسّاجين

طلب من النسّاج وضع صورتها وصورة الطفل
الرضيع على ردائه. ضحك حين رأى قرية بكامل
سكّانها وقال: "للنسّاجين حيلهم".

لكَ أن تبصرهم في خصوبة الإيماءة،
لكَ أن تبصرهم في هيجان التوت البري.
جسدهم بين الموج ورجفة النورس.
كان دليلهم شقعة ضوء بعيد،
كان دليلهم صوت جدجد،
كان دليلهم غناء في أول القافلة
التي تصعد على مهل.
هم لا يشوّشون رقص الزهرات في الليل
ولا يرمون البرد عالياً من فوق سور الحديقة،
هم لا يراوغون انفلاتة الوردة آن تفور الشهوة.

مديح طائر الخرشنة

يغمر ساقيه في عين الغزالة،
في منقاره طين من الجغبوب،
يقرأ فيه تاريخ أدعية شيخ بعثره الخوف،
يمكنه أن يجد مرارة صرخات سبعين عاماً،
يمكنه أن يتبعها إلى الشاطيء الأحمر، إلى زفرات
النساء في أشواز درنة العالية،
إلى النظرات الكئيبة المعلًقة على أشجار العرعار
في البيضاء وأمّ اللفع.
طائر الخرشنة، خجول، حذر، يتنصت على زوار
الليل المتسلّلين الرابضين وراء الأكمات والصخور.
بيته أعواد الباسيدونيا الميتة، وبيت بيضته العراء.

مديح طائر الخضّير

لشجرة الخوخ في حديقتي سبعة أعرف،
وعلى كل عرف خمسين رأس زهرة وردية،
تحتها تتساقط قطرات الماء صافية كالفضة.

كلّ طائر خضير حلّق أعلى قليلاً
من أعلى عرف في الشجرة
كلمح البصر قطف قطرة ماء
قبل أن تصل الأرض أو تتخطّفها حلازين الرمل.

حطّ طائر الخضّير، خلفه جاءت صاحبته،
مسح على عود الخوخ الذي أزهر منذ يومين
ومرة الجهة اليسرى، منقاره، مرة الجهة اليمنى
ثم بلا خوف واجهني بصدره الأخضر الخفيف،
وأطلق لحنّه العبقري.

من خلف الزجاج أراقبهم،
مثنى وثلاث وفرادى،
يرفرف طائر الخضّير خلف صاحبته،
جناحاه يكادان يسبقانه،
وعلى غصن طريّ رقيق وفي بريهة
يرتعش الجسد الغض على جسد غضٍّ
ثم يحلقان في الفضاء الفسيح
جناحاه يتأخران قليلاً.

أيّ لحن تفرغه في الكون،
يا طائر الخضّير!



أركنو
للطباعة والنشر